منارات
manarat

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير
فخري كريم

ملحق ثقافي اسبوعي يصدر عن جريدة المدى

العدد (1654) السنة السابعة - السبت (14) تشرين الثاني 2009

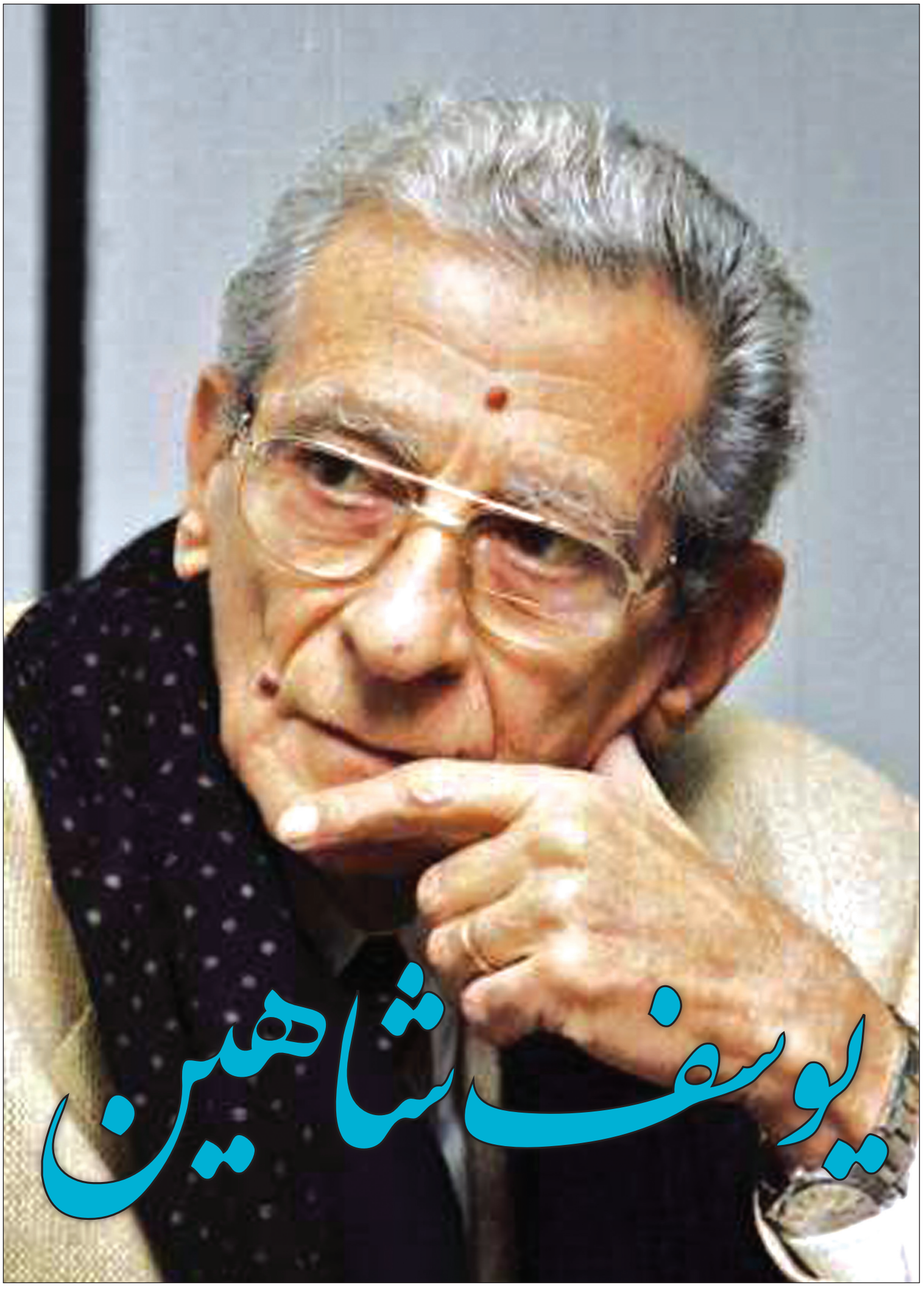

2
يوسف شاهين لا يزال معنا

8
حوار مع يوسف شاهين

10
يوسف شاهين.. سينما السيرة الذاتية

يوسف شاهين الصديق والمخرج الذي نقل الفيلم المصري الى العالمية،ليصبح واحداً من كبار المخرجين العالميين. لم تكن وفاة شاهين صدفة، بل خبراً كان محبوه يتوقعونه بعد الأزمات القلبية التي تعرض لها منذ تسعينيات القرن الماضي وكانت آخرها الازمة الصحية التي مرّ بها في آذار عام ٢٠٠٨ ونقل على أثرها الى المستشفى . وبعد خروجه منها فقد جزءاً كبيراً من حيويته وتوازنه مع الحياة وصحته بشكل عام.بل انه قبل ذلك بعام،بدا لي مختلفاً عما كان عليه من نشاط، يردد دائما، أنا الاكثر شباباً من الجميع وله الحق في ذلك،

ابتسام عبد الله مع يوسف شاهين عام ٢٠٠٧

ابتسام عبد الله مع يوسف شاهين في برنامج تلفزيوني عام ١٩٧٢

يوسف شاهين لا يزال معنا

ابتسام عبد اللّه

-١-

فهو الاكثر نشاطاً وعملاً وحركة متواصلة لكنني عندما زرته في مكتبه صيف عام ٢٠٠٧،لم اجده كما اتوقع:المرض غلبه أخيراً وبشكل مؤثر. ومع توصية الاطباء له بالراحة،جاء مرات إلى المكتب لرؤيتي. كان صورة باهتة لـ(جو)،عينان خابيتان،ضباب باهت يظللهما،(كيف حالك كويس)..كيف ترنني،لم أقل له الحقيقة لكنه عندما اشعل سيكارة،قلت،الا تبطل التدخين؟

اجاب كما في كل مرة، قبل عام وقبل اعوام،وماذا بقي لي من الدنيا،لقد تجاوزت الثمانين،فكم سنة سأعيش؟.

من الذاكرة

يوسف شاهين من المثقفين السينمائيين البارزين،يجيد خمس لغات،ويتابع الصحف وشغوف بالقراءة.وعندما حدثته عام ٢٠٠٦ عن كتاب في انتظار البرابرة (لكوتزي)،وكتاب (ادوارد سعيد) (المكان الآخر) لم يكن قرأهما،وطلب من المكتب شراءهما وفي ذلك اقترحت عليه تحويل احد الكتابين الى فيلم خاصة حياة ادوارد سعيد،الذي كان يعرفه واظهره في مقدمة فيلمه (اسكندرية نيويورك). أبدى اعجابه بالفكرة وتحمس لها،خاصة ان الكاتب الفلسطيني الكبير كان قد عاش اعواماً في مصر ودرس في نفس (كلية فيكتوريا)،مع يوسف وعمر الشريف.

وقد راودت يوسف شاهين العديد من الافكار لمشاريع افلام لم ينفذها قط.ففي السبعينيات وعندما مرّت منظمة الاوبك بازمة إثر هجوم نفذه كارلوس عليها،حدثنا (كانت تربطنا به صداقة عائلية وطيدة)،طوال أمسية عشاء فكرة تجول في باله لتنفيذ فيلم عن النفط وكيف يستغل من قبل الدول الكبرى الغنية وكيف ان الدول العربية ستظل ضمن مطامحها ما دام النفط ثروة يمكن الاستفادة منها.

قال انه في هذا الفيلم سيعود الى الكوميديا (له في هذا المجال، المهرج الكبير ١٩٥٢ وانت حبيبي ١٩٥٧ ،وانه باليوم والساعة،ومكان التصوير.

وفي تلك الغرفة تعقد الاجتماعات الخاصة،بالعمل خاصة بين يوسف وغابي خوري وخالد يوسف وماريان خوري. وفي العمارة ٣٥ ،شقق اخرى تخص الشركة العالمية،مخصصة للانتاج او المونتاج والعرض الخاص،مع شقة خاصة لشاهين.

وأخيراً،كان يوسف شاهين يحب العراق ويعلن تضامنه معه باستمرار،وكان ينبغي تقديم فيلم عن الاحتلال الامريكي،وقدم لي سيناريو فيلم كان سيخرجه خالد يوسف،لتبيان رأيي.. وعندما ناقشت أحداث السيناريو مع خالد يوسف،ووصل(جو) الى رفض الموضوع والبحث عن سيناريو آخر افضل ويتلاءم مع الاوضاع الجديدة في العراق.

كان يحب العراق ومثله خالد يوسف وقد اعربا لي صادقين مراراً عن استعدادهما لزيارته،لكن المرض اقعده ونال منه.

وقد عرض لي يوسف شاهين ذلك الجزء الخاص به في مكتبه ويتحدث فيه عن مخرج سيعرض له فيلم في مهرجان نيويورك،وتتأجل تلك الرحلة بسبب انفجار البرجين التوأمين.

ويبدأ المخرج في تحليل الحادث،عائداً بالذاكرة الى احداث سياسية في المنطقة العربية:اجتياح لبنان،مأساة فلسطين،والسياسة الامريكية حيال الدول العربية،وفي نهاية الفيلم مشهد مؤثر لمقابر هنا وهناك ضمت اجسادا من ذهب ضحية سياسة العنف والحرب.

ويقع مكتب يوسف شاهين في عمارة ٣٥ شارع شامليون.وسط القاهرة،وبالقرب من نقابة الصحفيين المصريين،وكنت ازوره هناك مرات في كل زيارة لي لمصر. المكتب بلون ابيض، وعلى جدران الممرات ملصقات لافلامه الشهيرة وفي غرفة العمل،ملصق كبير له،حاملاً جائزة مهرجان كان.و خلال تصوير فيلم ما من افلامه،يجد المرء جدولاً كبيراً في الغرفة يتضمن مواعيد التصوير ليوسف شاهين اضافة الى افلامه السينمائية عدد من الافلام الوثائقية القصيرة،رأيت منها

كان يحب العراق ومثله خالد يوسف وقد اعربا لي صادقين مراراً عن استعدادهما لزيارته،لكن المرض اقعده ونال منه.
وقد عرض لي يوسف شاهين ذلك الجزء الخاص به في مكتبه ويتحدث فيه عن مخرج سيعرض له فيلم في مهرجان نيويورك

فيلمه،(القاهرة منورة بأهلها)،يتحدث فيها عن الحياة اليومية لأهل القاهرة،اوائل التسعينيات ومشاعرهم إزاء الهجوم على العراق،ومظاهرات طلبة جامعة القاهرة.وظهر في الفيلم للمرة الاولى خالد يوسف،ويؤدي فيه دوره الحقيقي،(قائداً للمظاهرات)،إذ تخرج تواً من كلية الهندسة.جامعة القاهرة .وكان فيها رئيساً لاتحاد طلبة الجامعات.

ومن ذلك الفيلم،توطدت العلاقة الوثيقة بين الاثنين:علاقة صداقة وتفاهم مشترك،او كما يقول خالد،أنه ابي الثاني.

ومن افلام يوسف الاخرى التي لم تعرض على الجمهور العربي،إخراجه لجزء من عشرة اجزاء لفيلم بعنوان،(١١/٩ يوم العنف والارهاب في نيويورك).ويقدم الفيلم رؤية فنية خاصة لذلك الحدث،من قبل عشرة من كبار المخرجين العالميين،وكل فيلم منفصل عن غيره .ويمتد ١٥ دقيقة فقط. وبالتأكيد لم افكر في مشروعه،وهو بعد عودته،تلاشت شهرزاد من باله،واتجه الى كتابة(المصير)،اثر حوادث اغتيالات جرت في القاهرة. وافلامه أثيرة عليه، يتفرج عليها عند عرضها في التلفزيون. وقال لي يوماً هل تصدقين شاهدت (صلاح الدين الايوبي)،ودهشت لبعض المشاهد،حركة المجاميع،اللقطات الليلية،اعتقد اني غير قادر الآن على تنفيذها.

ويقول شاهين ان كل فيلم تجربة جديدة بالنسبة له،وهو يقوم بالتحليل الكامل لفترة زمنية معينة وما فيها من احداث سياسية واجتماعية،وعندما يتحدث عن سيرته،فهو يعني بالتأكيد تحليل مرحلة زمنية ضمن رؤية خاصة به،وتلك العملية،أي مرحلة التفكير والاعداد ثم الكتابة لفيلم جديد،ليست سهلة،فهو كما يقول،يتعذب في الغوص الى اعماقه وتعرية ذاته.

الاسلوب الافضل في طرح الفكرة

وفي مرة لاحقة،اوائل الثمانينيات،جاء الى بغداد وما ان التقيت به حتى فاجأني،هل توافقين على التمثيل،ضحكت معتبرة كلامه مزحة،لكنه اضاف،(دورهايل) ،اخذ يحكي قصة الفيلم وبطلتها شهرزاد،يبدأ بشهرزاد تطوف حول سور بغداد،وقد تقدم بها السّن،قذرة،رثة الثياب،تتسول من الغادين والرائحين لقمة العيش،قائلة لهم،دون ان يصدقها أحد،أنا شهرزاد. تجلس شهرزاد في مكانها،تتذكر ماضيها وتستعيد ما مرّ بها،وكيف طردت من القصر بعد قتل الملك الظالم،شهريار،إثر ثورة شعبية.ويحلل الفيلم شخصية شهريار،وكيف تمكنت شهرزاد منه بعقلها ورجاحة فكرها،ثم التفت اليّ ضاحكاً، انتبهي ان السينما تضيف بضعة كيلوات الى الصورة عادة سأعود إلى مصر وأكتب لك التفاصيل.

أخرج يوسف شاهين ٣٦ فيلماً،وفاز بجائزة الدب الفضي لمهرجان برلين عن اسكندرية ليه عام ١٩٧٩ وجائزة لجنة مهرجان كان عام ١٩٧٩ عن مجمل اعماله،وفاز بجائزة مهرجان قرطاج عن فيلمه الاختيار:وجائزة مهرجان اميان الدولي عن (المصير)وجائزة اليونسكو عن فيلم ١١/٩ عام ٢٠٠٣ ،في مهرجان البندقية. اخرج مسرحية كاليجولا في باريس بدعوة خاصة من مسرح الكوميدي فرانسيز عام ١٩٩٢ ،وحقق نجاحاً ساحقا. كان شاهين شديداً جداً في العمل وقد حضرت تصوير مشاهد عدة من فيلمه اسكندرية كمان،ووجدته يعيد التصوير لمشاهد قصيرة جداً،اكثر من خمسين مرة.

ان كل فيلم تجربة جديدة بالنسبة له،وهو يقوم بالتحليل الكامل لفترة زمنية معينة وما فيها من احداث سياسية اجتماعية،وعندما يتحدث عن سيرته،فهو يعني بالتأكيد تحليل مرحلة زمنية ضمن رؤية خاصة به،وتلك العملية،أي مرحلة التفكير والاعداد ثم الكتابة لفيلم جديد،ليست سهلة

ينادية اصدقاؤه بـ"جو" ويخاطبه الآخرون بـ"الاستاذ"، وهو الاستاذ فعلاً. انسان بسيط، لم يطرأ تغيير واضح على سلوكه وتعامله مع الجميع، من كافة المستويات سواء، تاركاً نفسه على سجيتها في احاديثه ومناقشاته متجاوزاً ببساطة ساحرة كافة الحواجز، وقد يبدو ذلك واضحاً في اعماله ايضاً.

انه يوسف شاهين، العلامة الابرز في السينما العربية اختير ضمن افضل عشرة مخرجين سينمائيين كان لهم تأثير مهم على السينما العالمية واختير ايضاً ضمن ابرز عشرة مخرجين عالميين للتعبير عن وجهة نظرهم في احداث الحادي عشر من ايلول عام ٢٠٠١، عبر فيلم واحد خصص لكل واحد منهم عشر دقائق فقط.

منذ ايام وانا اتابع اخبار "جو" فرحت جداً لاشتراكه في مهرجان فينيسيا العالمي للافلام، وتطوع (ART) بنقله في طائرة خاصة الى هناك، ذلك انه كان ممنوعاً من السفر، وشبه ممنوع من الحركة، بسبب المرض.

قبل اشهر مضت سمعت بالازمتين الصحيتين اللتين تعرض اليهما في خلال تصوير فيلمه الاخير، ولكنني لم اتوقع تدهور صحته بالدرجة التي رأيته فيها عند زيارتي الاخيرة للقاهرة قبل اربعة اشهر. وكعادتي بعد وصولي، اسرعت الى مكتبه، وفوجئت بغيابه "لم يعد يداوم بانتظام، نائم في البيت، وهناك من يلازمه باستمرار حتى خلال نومه خوفاً من أي طارئ" ، وبعد ايام اتفقت على اللقاء في اليوم التالي وفوجئت من جديد، بل صدمت لمرآه، "جو" الذي يتباهى دائماً بحيويته ونشاطه وبأنه سيبقى اكثر شباباً من شباب السينما "جو" كان يسير ببطء شديد، يسنده احد العاملين معه، وما ان اقتربت منه حتى رأيت تغييراً ملحوظاً قد طرأ عليه فانا اعرف يوسف جيداً وصداقة قوية تربطني به منذ اكثر من ثلاثين عاماً، وطوال تلك السنوات كان مثالاً للانسان الذي يضفي عليه العمل الخلاق، روحاً وفكراً يتجددان باستمرار ليزيلا عنه تكلسات الايام ان وجدت الطريق اليه. لم يكن ذلك اليوسف الذي اعرفه، المرح، المتوثب، الذي نجد الحياة تتألق في عينيه، والذي يتحدث بطريقته السريعة وكلماته المتلاحقة عن أي شيء بحماس. وتحدثت معه، سألني كالعادة عن اخبار العراق وشعب العراق، وقال انه يتابع اخبارنا دائما وهو يود زيارتنا لولا المرض، ولم تكن الكلمات تتقافز بين عبارته، يتوقف خلالها، كانه يريد ان يستذكر ما يقوله، مدركاً كما احسست انه مريض فعلاً، او ان الرعاية الفائقة التي يحاط بها قد جعلته يتوصل الى تلك الحالة.

سألته عن فيلمه "هي فوضى"، وكان قبل عامين قد بعث لي موجزاً لقصته وطلب ملاحظتي عنها. كان الفيلم في مرحلة المونتاج وطلب من العاملين معه عرضه علي بالرغم من ذلك مع انه لا يسمح لاحد ما بمشاهدة فيلم له قبل العرض العام. عندما ودعته في اليوم الاخير، تطلعت اليه ملياً وانا اقول لنفسي:هل ساراه ثانية، ام انها المرة الاخيرة وكأنما قرأ افكاري، لاني وجدته يقول "سأزوركم في بغداد".

اعود الى يوسف شاهين لأقول ان صوره التي التقطت في مهرجان فينيسيا قد اسعدتني، تأملته من جديد وفرحت لسعادته بعد ان كسر عزلته منطلقاً في تلك الاجواء التي يحبها ويردد عبارته التي يقولها باستمرار "ما زلت شاباً" ثم يضيف اليها جملة رائعة "الشيخوخة هي ان يترك المرء نفسه يشيخ" اجل العمل المتواصل هو سر الحياة.

باب الحديد لوحة الرعب والشفقة

حسن الكعبي

بعد مشواره الطويل المميز رحل عبقري السينما العربية المخرج الكبير يوسف شاهين الذي قدم خلال مشواره أكثر الأفلام إشراقا وتميزا ويعتبر فلمه المميز (باب الحديد) واحداً من كلاسيكيات السينما العالمية وقدم في هذا الفيلم إلى جانب الإخراج دور قناوي المعتوه إلى جانب المتألقة هند رستم وفريد شوقي .

إن ميزة هذا الفيلم تكمن في الطرح الجريء المتجاوز لتابو السينما العربية ليس في إطار كلاسيكيتها وإنما في السينما الحديثة ودون أن يجاريه في الطرح فيلم (هي فوضى) الذي شارك بإخراجه مع المخرج خالد يوسف أو فيلم (حين ميسرة) الذي أخرجه هذا الأخير أو فيلم مروان حامد (عمارة يعقوبيان)، والمقارنة لا تعتمد على الجرأة المشهدية في إبراز المفاتن أو إبراز الحدث الشاذ بوصفه خطوة جريئة في السينما العربية ، بل بإبراز الجانب النفسي للبيدو في شخصية (قناوي) الذي يظهره المخرج وحيد على قارعة الطريق ليلتقطه واحد من شيوخ منطقة باب الحديد ويعمل على رعايته كتمهيد لهامشية هذه الشخصية لان ما يدركه يوسف شاهين بوصفه عبقريا هو إن يمد جسور التفاهم بينه وبين مشاهديه منذ أول مشهد سينمائي كما يقول (امبرتو ايكو) عن السارد العبقري الذي ينتج تآلفا بينه وبين قرائه منذ أول مشهد روائي .

في إطار هذا التآلف لم يعد ضروريا أن يتقصى المشاهد جذور قناوي أو طرح أسئلة حول من أين أتى أو من هو قناوي لأنه سيظهر بصورة معروفة لنا ونشاهدها بشكل يومي بل إنها في كثير من الأحيان صورتنا العربية المحتقنة ايروتيكيا ، والتي استطاع يوسف شاهين أن يغربها ويقدمها لنا على إنها صورة غير مألوفة رغم أننا ندرك مالوفيتها ، وبذلك تظهر عبقرية شاهين من خلال الاغراء الذي يشدنا لنعرف حقيقة ما هو مألوف لدينا وان ننسى معارفنا حوله وكأننا نكتشف للمرة الأولى قناوي الذي نشاهده كل يوم وقد تحول الى ظاهرة هامة تعالجها اخطر قناة ثقافية. إن قناوي الذي يختار (هنومة) كبؤرة للشد الجنسي بما تتمتع به من أنوثة طاغية ، يدرك استحالة إن يرتوي من هنومة بل انه من خلال اختياره هذا إنما يعمل على مضاعفة احتقاناته كجزء من السادية التي يمارسها المحرمون على ذواتهم ، تمهيدا للخيار الراديكالي في محاولات الاغتصاب الذي أظهره شاهين في مشهد مميز لا يمكن أن يمحى من الذاكرة السينمائية .

في قراءته لخبايا قناوي يستظهر شاهين صور هنومة المعلقة على كوخ قناوي إلى جانب صورة (مارلين مونرو) التي تعد واحدة من الإناث المميزات ، وبذا فان شاهين يكشف الدلالة على حلمية قناوي وإدراكه لبقائه كذات محتقنة تعمل على الاستعانة بالحلم للتنفيس عن هذه النزوات والغرائز الطبيعية الممنوحة لقناوي كانسان من حقه أن يتمتع بإنسانيته.

في مشهد القتل الخطأ الذي يرتكبه قناوي عندما يقتل فتاة المحطة ظنا منه إنها هنومة ، يثير شاهين في المشاهد عواطف مزدوجة بين الرعب من قناوي والشفقة عليه ، فقناوي ضحية للحرمان الجنسي وضحية لعوقه ولتخلفه عقليا ، وبالتالي فان مجموعة الحرمانات تلك ، تجعله غير قادر على الارتواء الحياتي كما هو متاح لنقيضه أبو الليل الذي يظهر بكامل رجوليته في مشهد غاية في الرومانسية مع هنومة ، وهذا المشهد الذي يراقبه قناوي من ثقب في جدار الخربة هو الذي يدفع قناوي للانتقام من هنومة ، فيرتكب جريمة القتل الخطأ ، وبعد أن يكتشف إن هنومة حية يواصل محاولاته في القتل وكأنه بذلك يعمل على إقصاء عوامل الكبت والحرمان اللذين يعانيهما ولا يتراجع عن قراره إلا بوعده بالزواج من هنومة في إطار فخ نصب له للقبض عليه ولذلك فانه ما أن يدرك حقيقة هذا الفخ حتى يطلق صرخة حزينة تتجلى تأثيراتها على وجوه جميع الحاضرين في مشهد القبض على قناوي ، خصوصا مع الوجوم الذي يرافق نهاية الفيلم.

لقد برع شاهين في رسم لوحة الحرمان الإنساني حين جمع بين الرعب والشفقة، الجنس والألم بوصفها أكثر الغرائز الإنسانية التي لا يستطيع مقاربتها إلا عبقري من طراز شاهين.

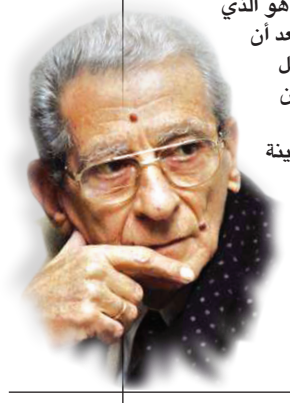

أسطورة السينما العربية

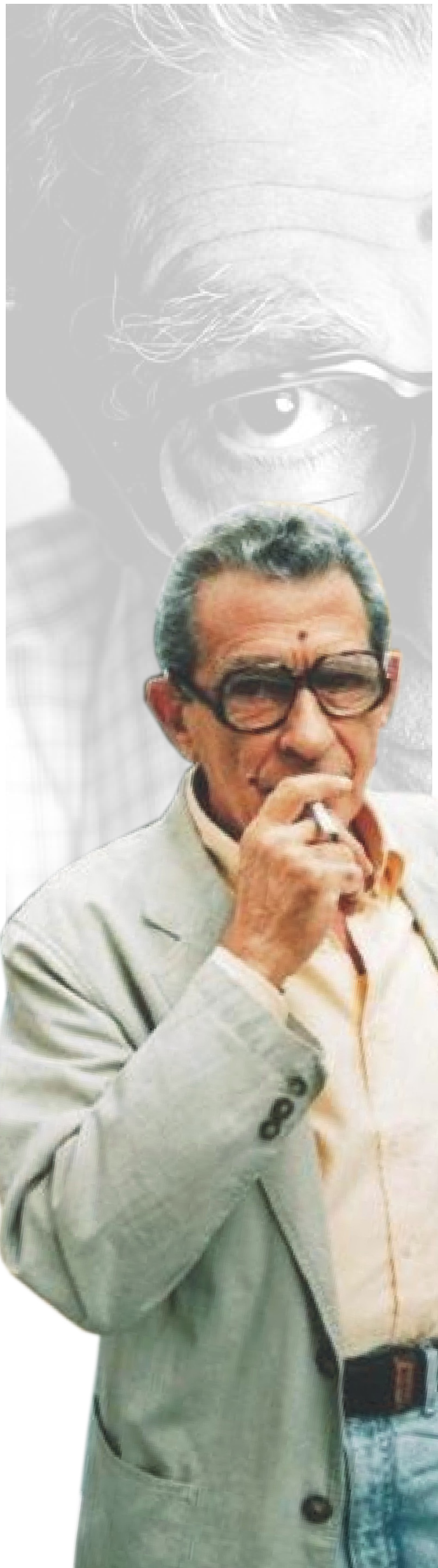

بالتاكيد ان تاريخ السينما المصرية والعربية دوّن للمبدع الكبير الراحل يوسف شاهين حرصه الكبير على احداث انقلاب كبير في ذائقة التلقي لجمهور السينما الذي يفضل في اغلب الاحيان مشاهدة ما سبق ان رآه بتنويعات طفيفة على المحتوى الاجتماعي والعاطفي لن تكون جديدة بل تفتعل التغيير نسبيا، مقولة (الجمهور عاوز كده) اسهم في تكريسها مخرجو الافلام التجارية والميوعة العاطفية ومنتجو افلام شباك التذاكر التي تسرق جيوب الملايين ولا تمنحهم الا متعة سطحية مستثمرة قصص الحب التافهة ومشاهد الاثارة والعنف والمخدرات.

باقر صاحب

ان السطحية الفكرية لهؤلاء المشاهدين تجعلهم يشاهدون هذه النوعية من الافلام عدة مرات لانها تداعب غريزة العاطفة والجنس والرغبة في تقليد قصص الجريمة في حين يعزفون عن مشاهدة افلام طليعية لمخرجين جادين على رأسهم الراحل يوسف شاهين منذ المرة الاولى فهي تتطلب غنى التفكير وبعد الافق فنيا وفكريا.هذا الحرص الكبير على احداث انقلاب كبير في الذائقة الفنية للمشاهد المصري والعربي ،بانت بواكيره منذ الفيلم الاول لشاهين(بابا امين)العام ١٩٥٠ -اي عمر شاهين لا يتجاوز ٢٤عاما،اذ استثمر الفنتازيا في هذا الفيلم عن حياة شخص ما بعد الموت.

افلام شاهين كانت كنصوص الحداثة في الشعر والسرد لا يستطيع متلقوها ادراك مضامينها ومن ثم تاويلها بعد القراءة الاولى اذ تحتاج تأملا وقراءات اخرى، كذا افلامه بحاجة الى مشاهدات عدة لكي يمسك المشاهد المتأمل جوهرها الفكري ومتعتها الفنية.

تفرد الراحل شاهين ايضا بصناعته افلام سيرته الذاتية ويعد بهذا رائدا فانتقد بوصفه مثقفا عربيا نخبويا حياته الشخصية في سلسلة افلام ذات مستوى فني عال، افلام مثل اسكندرية ليه، حدوتة مصرية، اسكندرية كمان وكمان، واسكندرية .نيويورك. حديثه عن سيرته في هذه الافلام المذكورة هو بمثابة(تحليل مرحلة زمنية ضمن رؤية خاصة به) (ابتسام عبد الله-جريدة المدى-الاربعاء ٢٩-٧-٢٠٠٩).

يوسف شاهين مخرج افكار حرص على التوغل في نقد الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية للمجتمع المصري فضلا عن جنوحه الى الهم القومي احيانا في فيلم (جميلة بوحيرد) العام ١٩٥٨ بشان الثورة الجزائرية ضد الاستعمار الفرنسي آنذاك، كما دأب على نقد الدين والسلطة شغوفا بالحرية والديمقراطية والعلمانية وبذل الجهود المضنية لتوصيل هذه الافكار بتقنية اخراجية عالية. وبالنظر لما للسيناريو من دور مهم في انتاج الافكار على الورق عمد دائما الى خلق مشاركة حقيقية مع كتاب سيناريوهات افلامه عبر جلساته المستمرة معهم من اجل ضمان دقة تنفيذ افكاره ورسم شخصيات افلامه على الورق.

ومن انفرادات يوسف شاهين في ضوء قناعته التامة ان الخط الفكري والاخراجي يندر ان يناظره فيه مخرجون آخرون. انه عمل بجد واخلاص كبيرين على اعداد مخرجين شباب يواصلون منهجه الاخراجي وطرقه الفنية الوعرة من اجل خلق صناعة سينمائية تنتصر للجمال وابداع الدهشة وترسيخ القيم الانسانية العليا وتحرر ذائقة المتلقي من براثن السينما السهلة والافكار السطحية المبتذلة ومن هؤلاء المخرجين الجدد، خالد يوسف الذي لن يبدأ بما انتهى اليه الراحل بل شاركه في صنع رؤى الحداثة في السينما المصرية في فيلمي (هي فوضى) و(حين ميسرة) بل انتقد بعض النقاد الراحل شاهين في ان يكون المشرف الرئيس لفيلم (هي فوضى) مثلا ولكن العملية الاخراجية بادارة خالد يوسف ، اذ انتقد تركيز المخرج الشاب على مشاهد العري والاغتصاب والنقد غير المباشر للسلطة ورجال الدين وهي ثيمات تتكرر في افلام يوسف شاهين فسقط هذا الفيلم .على حد زعم النقاد كما هو اسمه في فوضى مربكة.

كثيرا ما وصف يوسف شاهين من قبل بعض الاوساط السينمائية المصرية.. نقادا ومخرجين بانه وصل الى مستوى في الصناعة الاخراجية .وفي المرحلة الاخيرة من حياته تحديدا .لم يابه فيه بقضايا الجماهير وكانما اصبحت قضيته السينمائية مكرسة لرؤية الفن للفن لان الراحل قلب كل الاساليب الاخراجية راسا على عقب مؤسسا فنا سينمائيا معتمدا زوايا تصوير جديدة وحوارا مكثفا فضلا عن الانتقالات الصادمة في المونتاج بما يقتص من اي ترهل في السلسلة الفيلمية مستوعبا بذلك آخر ما وصلت اليه التقنيات الاخراجية في العالم.

قد يكون الراحل في بعض افلامه غير عابئ البتة برأي جمهور السينما او باستيعابه لافلامه الغامضة وصولا الى مسألة تغيير ذائقته.

ولكن شاهين في رحلته السينمائية التي تقرب من ستة عقود استطاع ان يلتهم مظاهر الحياة كافة بوساطة رؤى اخراجية مختلفة تتماهى مع مضامين افلامه فضلا عن الافلام الغنائية والاستعراضية التي قام ببطولاتها نجوم الغناء العربي آنذاك مثل فريد الاطرش وشادية وليلى مراد من الاجيال القديمة، ومطربات الاجيال الحديثة والرصينة،فاختار ماجدة الرومي في فيلم (عودة الابن الضال) العام١٩٧٦، والمطربة لطيفة التونسية في (سكوت حنصور) العام ٢٠٠١ومن المفارقة ان شاهين لحن للطيفة احدى اغاني هذا الفيلم.

تنامي الوعي الاجتماعي للراحل تناغم مع تطور متصاعد في تجربته الاخراجية، فدافع عن الطبقات الاجتماعية المسحوقة في افلام(ابن النيل،صراع في الوادي، الارض). بالاضافة الى افلام تاريخية قدمت برؤية سينمائية جديدة شخصيات مهمة مثل(الناصر صلاح الدين) و(المصير)عن الفيلسوف ابن رشد الذي ادى دوره الممثل الكبير نور الشريف، وشخصية نابليون بونابرت واثرها النهضوي في حقبة مهمة من تاريخ مصر في فيلم (وداعا بونابرت).

ومن ثم ان الراحل بتطور وعيه السياسي والفكري اقدم على مرحلة اخراجية مهمة تعتمد الرؤية السياسية في افلام (العصفور، الاختيار،عودة الابن الضال)، وكما اسلفنا فان مرحلة (التعالي المحض) والخروج عن دائرة الاهتمام بالمتلقي، تأخرت الى حد انها اصبحت ذروة صناعة الحداثة في السينما المصرية في فيلمي (هي فوضى، حين ميسرة).

هناك ما ينبغي معرفته عن التجربة السينمائية الرائدة للمخرج الراحل ،على سبيل المثال اخراجه فيلماوثائقيا بعنوان (القاهرة منورة باهلها) (عن الحياة اليومية لاهالي القاهرة في تسعينيات القرن الماضي ومشاعرهم تجاه العراق اثناء الحرب الخليجية الثانية ،يظهر فيه المخرج خالد يوسف ك(قائد حقيقي للمظاهرات)ضد الحرب وهو خريج كلية الهندسة ،رئيس اتحاد الطلبة آنذاك).. (طالما تمنى الراحل شاهين اخراج فيلم عن الحرب الاخيرة على العراق لكن المرض اقعده ونال منه)بحسب ماذكرته الكاتبة والمترجمة ابتسام عبد الله،جريدة المدى.

وتذكر الموسوعة الحرة(ويكيبيديا) ان الفنان العالمي حاز على سبع جوائز سينمائية عالمية واخرج خلال الحقبة الزمنية (١٩٥٠-٢٠٠٧) خمسة وثلاثين فيلما طويلا ، وستة افلام قصيرة ومسرحية عالمية.

في رحلته السينمائية التي تقرب من ستة عقود استطاع ان يلتهم مظاهر الحياة كافة بوساطة رؤى اخراجية مختلفة تتماهى مع مضامين افلامه فضلا عن الافلام الغنائية والاستعراضية التي قام ببطولاتها نجوم الغناء العربي آنذاك مثل فريد الاطرش وشادية وليلى مراد من الاجيال القديمة.

يوسف شاهين أرخ لسيرته برقائق تسبح في الضوء

مخرج يجمع قلبه ودمعه في مشهد واحد

محمد جبّار الربيعي

كان يوسف شاهين عَلماً من اعلام السينما وجبلا شاهقاً متخماً بالفكر والابداع والتجديد.. فقدته حبيبته الاولي بعد أن أعطاها عُصارة شبابه وكهولته فكانت الحصيلة(٣٧) فلماً طويلاً و (٥) افلام قصيرة.. ٤٢ نزيفاً فكريا وعملاً متواصلاً وعمراً موزعاً علي تلك الافلام بلا كلل او ملل .. ولد (شاهين ٨٢ عاماً) في معشوقته الكبيرة الاسكندرية عام ١٩٢٦ من أب لبناني وأم يونانية وبيت تتداول فيه خمس لغات وخمس ثقافات وفي مدينة كانت تعتبر من أهم موانئ البحر الابيض المتوسط ومحط وملتقي الالسن والجاليات من شتّي أصقاع الأرض فكان يخزن في ذاكرته كل تلك التجاذبات والاختلافات والتنوعات والحصيلة فكراً مثقفاً فطرياً منفتحاً علي كل العالم فكراً بإمكانه تلخيص كل تأريخ مصر وكل انتصاراتها وانكساراتها

فقد كانت أفلامه المرآة العاكسة للتطورات والاحداث والصراعات التي حصلت في مصر وحتى في الوطن العربي .... بدأ حياته السينمائية بفلم(بابا امين)١٩٥٠ بعد عودته مباشرة من الدراسة في الولايات المتحدة التي دامت سنتين ليبدأ مشواره في السينما ثم يتبعه بعد سنة بفلم (إبن النيل) الذي شارك فيه بمهرجان كان عام ١٩٧٠ ثم توالت افلامه (صراع في الوادي)١٩٥٤ (وانت حبيبي)١٩٥٦ و(ودعت حبك) ١٩٥٧ وغيرها من الافلام العاطفية الرومانسية ثم دخل السياسة في افلامه التي تعج بالوطنية والنضال مثل (جميلة)١٩٥٨ و(الارض)١٩٧٠ و(العصفور) ١٩٧٢ و(عودة الابن الضال) ١٩٧٦ وكان قد سافر الى لبنان لإخراج فلم(بياع الخواتم)١٩٦٥مع المطربة فيروز.... ولأنه عشق الحرية واحب ان يترك العنان لأفكاره وإبداعه فقد قرر انتاج افلامه بنفسه فمنذ فلم العصفور الذي حمّل فيه سبب خسارة حرب ١٩٦٧ الى الفساد في المؤسسات السياسية في مصر منعت عنه الحكومة التمويل الرسمي (كما صرّح هو في اكثر من مناسبة) واعتمد على امكانياته الخاصة في الانتاج ويبدو انه إستطعم الحُرية في افلامه فكان طرحه لقضاياه بكل موضوعية وانطلاق رغم ان بعضها مُنع من العرض في مصر الا ان هذا لم يثنه أو يقلل من عزيمته واستمر في نهجه خصوصاً انه تم عرض تلك الافلام في معظم الدول العربية وحتى الغربية ..... اهم ما تميز به شاهين وتفرد به هو عمل افلام لسيرته الذاتية وهو شيء لم يسبقه مخرج عربي او يحذو حذوه فيه فبقيت التجربة شاهينية بحتة ... ولا أعتقد ان الجمهور (بسبب هذه السلسلة

يعرف مُخرجاً وتأريخه ودواخله كما عرف يوسف شاهين فقد قدّم حياته ومعاناته وإرهاصاته على طبق سليلوزي للمُشاهد (حتى انه تطرق الى ادق التفاصيل واسراره العائلية) لذلك أصبح شاهين ورقة مقروءة من قبل الجميع بطرحه لكل شيء بكل جرأة وثقة فكانت سلسلة افلامه التي بدأت بـ(اسكندريه ليه) ١٩٧٩ الذي ركز فيه على فترة شبابه ودراسته في الاسكندرية وحلمه في الوصول الى الولايات المتحدة والدراسة هناك والاحداث السياسية التي صاحبت تلك الفترة ..... ثم تبعها برائعته (حدوته مصرية) ١٩٨٢ التي إستخدم فيها اسلوباً جديداً غير مسبوق(بجعل معظم احداث الفلم ومحاكمات الذات تجري في داخل قفصه الصدري خلال العملية التي أُجريت لقلبه فجعل ديكور الفلم عبارة عن قفصه الصدري وكان هناك محكمة متكاملة فيه) ثم (فلم إسكندرية كمان وكمان) ١٩٩٠ الذي فيه قام بدور البطولة وركز فيه على موضوعة جحود الممثل محسن محيي الدين له وتركه التمثيل معه وانكساراته في المهرجانات والاضراب الذي قام به الفنانون ثم فلم (اسكندرية نيويورك ٢٠٠٤) الذي ختم فيه قصته مع السينما وانهى به السلسلة التي استمرت لربع قرن وهذه الافلام الاربعة لخصت يوسف شاهين بشكل بارع بل ولخصت تأريخ السينما المصرية وتأريخ مصر بشكل عام.

ومن اهم المحطات التي تميز بها هو مهاجمته للارهاب والتطرف قبل ظهور تلك الظاهرة عالمياً فقد تنبه لها بحسه القارئ للواقع والمستقبل فركز على تلك النقطة في اكثر من فلم منها (الآخر ١٩٩٩)و (المصير ١٩٩٧)وما زالت الكلمة الرائعة التي ختم بها الفلم (الافكار لها اجنحة .....) باقية في ذاكرة من شاهد الفلم قالها رداً على محاربة فكر ابن رشد(قام بدوره الممثل نور الشريف) والقمع الفكري الذي تعرض له و حرق مكتبته فلم يكن ابن رشد مكترثاً لان افكاره حملتها اجنحتها الى كل الاماكن ولن يستطيع اي شخص اصطيادها او منعها من الطيران الى عقول الاخرين .....وكان حضوره في الافلام التاريخية كبيراً فأخرج فلم (الناصر صلاح الدين) ١٩٦٣ الذي يُعدّ من أهم الافلام التأريخية في السينما العربية رغم مرور ٤٥ سنة على إنتاج هذا الفلم إلا انه ما زال يحتفظ برونقه وتأثيره عند عرضه فأحتوى على مشاهد معارك متقنة واستخدم اسلوباً مسرحياً متفرداً في داخل السينما (في مشهد المحاكمة للخائنين من الجيشين المتقاتلين) فوضع مشهدين متجاورين في كادر واحد واستخدم الاضاءة في تفعيل احد المشهدين والعتمة في المشهد الاخر تماماً كما في المسرح وهو بهذا عكس حبه للمسرح باسلوبه المتفرد وكذلك فلم(المهاجر) و(المصير) اللذان كانا يحملان الطابع التأريخي الذي وظفه لأيصال افكاره برمزية تعوّد على ها المُشاهد الذي الفَ هذا المخرج ورموزه وافكاره..... وَ تميز ايضا باكتشاف الممثلين الشباب وكأنه إعتبر هذا من احد الواجبات الملقاة على عاتقه مثل محسن محيي الدين وعبد الله محمود وخالد النبوي وهاني سلامة ويكفي انه إكتشف الممثل العالمي عمر الشريف .... وطرح ايضا المطرب محمد منير كممثل في افلامه الذي كان بمثابة اللازمة لمعظمها بصوته الاصيل وتفرّد في إعطاء دور البطولة للمطربة الفرنسية المصرية الاصل دالىدا في فلم (الىوم السادس)١٩٨٦ فدخلت سينماه الى فرنسا بذكائه المتوقد فدالىدا مطربة فرنسية مشهورة بالاضافة الى كونها إسكندرانية الولادة والطفولة وصادف انها إنتحرت بعد عرض الفلم بفترة قصيرة فساهم هذا ايضا بنجاح وانتشار الفلم (علماً ان الممثل العراقي يوسف العاني شارك في هذا الفلم ايضا في دور مهم).... ويوسف شاهين يسيطر على ممثله بشكل تام بحيث يُخرج كل طاقاته الكامنة وربما حتى التي لايعلم الممثل نفسه بها فيفجّرها لذلك تجد الممثلين في افلامه في قمة العطاء والابداع ففي فلم(الاختيار) الذي يحكي عن مرض فصام الشخصية كان الممثل عزة العلايلي رائعا جدا وتألق في الفلم بأدائه لدورين لأخوين متشابهين فهو يقفز ويرقص ويغني في احدهما (وهو دور جديد جدا على هذا الممثل) وبعكسه الاخ الثاني الذي كان رسميا جدا مع الاخرين ... كان يوسف شاهين يؤثر على الممثل الى الدرجة التي تجعل الممثل يقلد حركاته وأكثر ممثل تأثر به وبحركاته كان نور الشريف خصوصا عندما مثّل سيرته الذاتية في فلم حدوتة مصرية وبقي نور الشريف متأثرا بهذا الدور وبشخصية يوسف شاهين وتقمصها حتى في افلامه التي تبعتها..... وتخرّج على يديه مخرجون مهمون اولهم واهمهم خالد يوسف الذي كان معه في مسك الختام بفلمهما المشترك (هي فوضي ٢٠٠٧) وهو الفلم الجريء الذي تطرق للفساد والرشوة اللذين ينخران الدولة وكذلك تربت على يديه المخرجة العراقية خيرية منصور التي عملت معه في أكثر من فلم .... وكما جهد هتشكوك في الظهور في معظم افلامه جهد يوسف شاهين في الظهور في افلامه بلقطة واحدة في الكثير من الافلام بالاضافة الى فلمين كان له دورالبطولة فيهما وهما (باب الحديد) وادي فيه شخصية (قناوي) الشهيرة و(اسكندريه كمان وكمان) ودور اصغر في (فجر يوم جديد) و(الىوم السادس) فيما ظهر في افلام لم تكن من إخرجه مثل فلم (اسماعيل يس في الطيران) إخراج فطين عبد الوهاب وفلم (ويجا) لتلميذه خالد يوسف..... اما سجل الجوائز فهي تشكل حسرة في حياته كما شاهدنا ذلك في افلام سيرته الذاتية فهو يكتشف ان الاختيار يتم لأسباب سياسية واعتبارية قد تبتعد كثيرا عن الاسباب الفنية لذلك كانت مشاركاته قليلة ويائسة لكنه حصل على جوائز مشرفة على الرغم من انها لم تشف غليله فقد كان يحلم بأكبر من تلك الَجوائز...و اهمها جائزة التانيت الذهبية في مهرجان قرطاج السينمائي عن فلم(الاختيار) عام ١٩٧٠ وجائزة الدب الفضي في مهرجان برلين السينمائي عن فلم (اسكندريه ليه) عام ١٩٧٩ وجائزة أفضل تصويرفي مهرجان القاهرة السينمائي عن فلم (اسكندريه كمان وكمان) عام ١٩٨٩ وجائزة مهرجان أميان السينمائي الدولي عن فلم (المصير) وفي عام ١٩٩٧ حصل على جائزة السعفة الذهبية لمهرجان كان للسينما تقديرا لانجازه وسيرته الفنية الطويلة وجائزة فرنسوا كالية لمهرجان كان السينمائي عن فلم (الآخر) عام ١٩٩٩ وجائزة الىونيسكو لمهرجان فينيسيا السينمائي عن فلم (١١-٩-٢٠٠١)عام ٢٠٠٣ وكذلك منح مرتبة ضابط في لجنة الشرف من قبل فرنسا في ٢٠٠٦ . وهكذا انتهت حياة اهم مخرج مجدد على الاطلاق واختُم هذا المختصر عن حياة هذا العملاق بنعي الرئيس الفرنسي نيكولا ساركوزي الذي قال عنه "الفن السابع فقد لتوه احد اشهر المساهمين فيه.... فيوسف شاهين، المتعلق جدا بمصر لكنه منفتح على العالم، هو مخرج ملتزم ومدافع كبير عن حرية التعبير وبشكل اوسع عن الحريات الفردية والجماعية فهو مفكر صاحب استقلالية كبيرة وهو مدافع كبير عن تزاوج الثقافات".

كان حضوره في الافلام التاريخية كبيراً فأخرج فلم (الناصر صلاح الدين) ١٩٦٣ الذي يُعدّ من أهم الافلام التأريخية في السينما العربية فرغم مرور ٤٥ سنة على إنتاج هذا الفلم إلا انه ما زال يحتفظ برونقه وتأثيره عند عرضه فأحتوى علي مشاهد معارك متقنة

رغم بلوغه السن الذي تجاوز ٨٢ عاماً، لكنه كان مصراً على إنه مازال شاباً في عطائه الابداعي ،ويمكنه تقديم وإخراج العديد من الافلام في السنين القادمة،وكان كثير التكرار' أنا لا أنظر في المرآة، إنه من الحماقة أن أفعل ذلك وأقول إنني أصبحت مسناً'.
كان يوسف شاهين ساحر السينما العربية،ولد سنة ١٩٢٦ في مدينة الاسكندرية أخرج ٣٦ فلما روائيا وأفلام تسجيلة عدة .وداعاً يامن علمتنا ابجدية الجرأة وحرية الكلمة والموقف الحر ونقل صورة الواقع من دون رتوش واعلان صرخة الرفض والاحتجاج على الهزيمة والظلم من خلال موقف عين الكاميرا.

وداعاً يوسف شاهين

عصمان فارس

كان صاحب مدرسة سينمائية تخرج منها العديد من الفنانين والفنيين والمخرجين، و من أبرز رموز السينما المصرية التي يعرفها العالم.يوسف كنت اجمل قديس في السينما المصرية والعربية؛اودعك والالم يعصر قلبي ودموعي كنهر النيل ودجلة والفرات تذرف حزناً على فراقك ايها المبدع الجميل.

يبقى اسم الفنان والمخرج الكبير يوسف شاهين وافلامه المثيرة للجدل، وهي تستفز وتقض مضاجع الرجعية وقوى الظلام والتخلف بسبب واقعيته وموضوعاته. شاهين كرس حياته للسينما وهو الشاهد على عصره ومحرض سياسي ومصلح اجتماعي، فنان حر لايخشى لومة لائم ولا اصحاب الكراسي من السياسيين ،فهو كالشاعر ينظر بوعي وصدق من خلال العين الثالثة . بسبب النجاح الباهر الذي حققه فلم 'هي فوضى' اخراج المبدع الكبير يوسف شاهين، فكرة الفلم معاصرة تصور الواقع المخزي وتفسخ البنية الاجتماعية والسياسية. والفلم عبارة عن تصوير واقعي وامتداد لكل افلام يوسف شاهين ،تصوير واقع والتأكيد على القمع الجنسي والسياسي ودور السلطة القمعية وانتشار الفساد والرشوة والمحسوبية والتزوير على كل الاصعدة.وختم ابداعه الفني بفلمه الاخير هي فوضى، والفلم اثار زوبعة كبيرة وغيض السلطة القضائية بسبب بعض المشاهد،وبسبب هذا الموقف السلبي من الفنان الكبير يوسف شاهين 'كوبولا،وانجمار برجمان وفليني العرب' مبدع وكبير جعل من السينما قضية لصرخة الفقراء ومصر هي جوهر ومركز ثقل لكل أفلامه من الارض ومن رمز بهية وعودة ابنه الضال،وعصفوره داخل القفص يغني حدوتة مصرية، وطيره المهاجر وهو من دون جواز سفر يبحث عن مصيره المجهول في إسكندرية كمان وكمان،واليوم السادس بكل سياساته المعكوسة والمغلوطة.، كل فنان وأديب ثروة وطنية، قومية وانسانية. في الغرب فنان مثله يصنعون له التماثيل وتصنع عملة باسمه او شارع او ساحة او مسرح.

ان يوسف شاهين بابه من الحديد وهو رمز للبداية والنهاية،ويقف شاهين شامخاً في قلب الاوجاع العربية كاشفاً الهزيمة وهو يفضح اللصوص والمرتشين وموقفه صريح ولايتردد وهو ابن مصر يحب الغلابة ويكره الكبث والتخلف والاستغلال. وموقفه كفنان صادق لايعرف التزويق ولغة المهادنة لدهاقنة السياسة،تعلمنا نحن الكثير منه وعرفنا ان السينما ليست وسيلة للتسلية ،السينما قضية للتحريض وفكر للتغيير ومعركة ضد الزيف والتخلف؛ وكم أنا سعيد الحظ التقيته ثلاث مرات في العراق، فسلاحه عين الكاميرا وعقله المحرك ذكي ومتعطش الى المعرفة واسلوبه البحث والتمرد على الواقع المتخلف. ويبقى الفنان المخرج يوسف شاهين خالداً في ذاكرة الاجيال السينمائية ومحبيه ، وهو يجابه ويحارب الهيمنة والتخلف بواسطة الكاميرا السينمائية والفكر ؛ فقدم سيرته الذاتية فى افلام اسكندرية ليه، اسكندرية كمان وكمان، حدوتة مصرية، اسكندرية نيويورك كما قدم أيضا أفلاما تاريخية هى الناصر صلاح الدين، وداعاً بونابرت، المهاجر، المصير اضافة الى الأفلام الغنائية والاستعراضية التي أمتعتنا علي الشاشة لفريد الاطرش وشادية وليلي مراد وفيروز وماجدة الرومي ولطيفة، واجتذب داليدا إلى عالمه الساحر في اليوم السادس

موقفه كفنان صادق لايعرف التزويق ولغة المهادنة لدهاقنة السياسة،تعلمنا نحن الكثير منه وعرفنا ان السينما ليست وسيلة للتسلية قضية للتحريض وفكر للتغيير ومعركة ضد الزيف والتخلف؛ وكم أنا سعيد الحظ التقيته ثلاث مرات في العراق

وكانت للفنان يوسف شاهين رؤية سياسية فى أفلام: الأرض، العصفور، الاختيار، عودة الابن الضال، جميلة بوحيرد الذى يُعد عملاً سينمائياً له تفرده كما كان له رؤية اجتماعية كما في أفلام: صراع في الوادي، باب الحديد.

اكتشف يوسف شاهين العديد من الوجوه الجديدة على مدار تاريخه السينمائي، كما غير من أداء نجوم كبار مثل حسين رياض ليجعله كوميديا، وفريد الأطرش، علاوة على أنه قدم نفسه كممثل في دور قناوي في فيلم باب الحديد.

حصد شاهين العديد من الجوائز المحلية والعالمية ففي عام ١٩٧٠ حصل على 'التانيت الذهبي' في مهرجان قرطاج عن مجمل أعماله في عام ١٩٧٢ ووقع على أول اتفاق للإنتاج المشترك بين مصر والجزائر لإخراج فيلم 'العصفور' الذي خرج نور في ابريل عام نور في ابريل عام في عام ١٩٧٩ حصل على جائزة الدب الفضي، وعلى الجائزة الكبرى للجنة التحكيم في برلين عن فيلم 'إسكندرية ليه' أول أجزاء السيرة الذاتية التي تتضمن 'حدوتة مصرية' ، 'إسكندرية كمان وكمان' '١٩٧٣'

في عام ١٩٩٢ عرض عليه (جاك لاسال) مدير مسرح 'الكوميدي فرانسيز' في باريس إخراج مسرحية من اختياره، ووقع اختياره على 'كاليجولا' لألبير كامو، وحققت المسرحية نجاحاً مذهلاً في باريس.'كاليجولا' لالبير كامو

في عام ١٩٩٤ حصل على جائزة الدولة التقديرية

في عام ١٩٩٧ حصل على جائزة مهرجان كان في عيده الخمسين عن مجمل أعماله

في عام ١٩٩٧ أيضاً حصل على الدكتوراه الفخرية من جامعة السوربون VIII Paris بفرنسا

عام ١٩٩٩ تم اختيار فيلمه 'الآخر' لافتتاح قسم 'نظرة ما' بمهرجان كان السينمائي

في عام ٢٠٠١ أخرج فيلم 'سكوت.. ح نصور' الذي كان ضمن الاختيار الرسمي لمهرجان فينسيا، وتم تكريمه في إطار تكريم ثلاثة مبدعين من صناع السينما العالميين وتسليمه وسام المهرجان

حصل على أكثر من ١٢ وساما من مختلف الدول العربية والأوربية

في عام ٢٠٠٢ حصل على الدكتوراه الفخرية من الجامعة الأمريكية بالقاهرة كما حصل أيضاً على الدكتوراه الفخرية من جامعة مارسيليا بفرنسا

في عام ٢٠٠٤ أخرج فيلم (إسكندرية.. نيويورك) الذي تم اختياره ليعرض في فعاليات افتتاح مهرجان كان السينمائي الدولي.

في عام ٢٠٠٦ منحه الرئيس الفرنسي جاك شيراك أرفع وسام شرف برتبة قائد تقديراً لموهبته السينمائية وتأثيره العالمي بأفلامه التي ساهمت في التقارب الفرنسي – العربي.

في عام ٢٠٠١ أخرج فيلم (سكوت.. ح نصور) الذي كان ضمن الاختيار الرسمي لمهرجان فينسيا، وتم تكريمه في إطار تكريم ثلاثة مبدعين من صناع السينما العالميين وتسليمه وسام المهرجان
حصل على أكثر من ١٢ وساما من مختلف الدول العربية والأوربية
في عام ٢٠٠٢ حصل على الدكتوراه الفخرية من الجامعة الأمريكية في القاهرة

شرنقة شاهين الحريرية المعرفية

خيرية المنصور

قد تكون اوراقي مبعثرة بترتيبها الزمني وليس في فحواها، قد تكون مفيدة للبعض لنقل تجربتي السينمائية مع الأب الروحي يوسف شاهين، أبدأ الحكاية بإحدى هذه الأوراق المبعثرة، في شيراتون القاهرة ،امواج من البشر المتلاطم، أفيشات أفلام معلقة هنا وهناك، لوحة إعلانات كبيرة يزينها خط بالبونط العريض، مهرجان القاهرة السينمائي، بجسمي الضئيل استطعت أن أشق هذه الأمواج واخذ زاوية، ابحث عن الفنانة الصديقة منى واصف، صوت يخترق سمعي يناديني بإصرار، خيرية، التفت، فإذا بالصديقة المخرجة ايناس الدغيدي، جلسنا نتجاذب الاحاديث عن العراق، عن الحصار، السينما العراقية، وتوقفها، عن، وعن، ...وقطعت حديثي، ماذا تعملين الآن مع شاهين في شركة أفلام مصر العالمية ؟

أجبتها، نعمل من دون عمل، يعطينا رواتب، وبس، كثر خيره، على الأقل أرسل لعائلتي مبلغا جيدا امن فيه مدرسة ابنتي، وبلدنا محاصر، فاتسعت حدقتا عينيها، وردت علي، احب اقول لك إن يوسف شاهين لا ينتج لك ولا لغيرك إذا لم تحصلي على تمويل لفيلمك، وهذه الحقيقة أنت تعرفيها جيداً، وكل المساعدين الذين عملوا معه،اصبحوا مخرجين يشار لهم مثل رضوان الكاشف، ويسري نصر الله، وحتى علي بدرخان، مزقوا شرنقة شاهين، وانطلقوا بعد حصولهم على تمويل لأفلامهم، فأنت عليك يا خوخة بتمزيق هذه الشرنقة وانطلقي إلى عالم السينما الرحب، لا تخافي أنت مخرجة ولديك فيلمين روائيين، وغير الأفلام التسجيلية، ولديك جوائز حصدتيها، مزقي هذه الشرنقة وستجدين هناك اكثر من ذراع تحتضنك بدفء ومحبة، كفاية أربعة أفلام عملتيها مع جو (وجو اسم التدليع ليوسف شاهين) انطلقي وتعرفي على السينمائيين حتى يعرفوك، لماذا ساكتة لا تردي ؟ ابتسمت على مضض ورديت عليها، ان رضوان الكاشف يرحمه الله قال لي نفس كلامك، نظرت الي وقالت لأننا أصدقائك ونحبك، صوت أحدهم نادى على ايناس، وقفت قائلة : اسمعي بعد انتهاء المهرجان سوف أبدأ بفيلم الوردة الحمراء يشرفني وجودك معنا، ونحن أخوات، تعالي وتعرفي على الناس، ناداها الصوت مرة أخرى، تركتني معتذرة بعد أن أعطتني أرقام تلفوناتها وعنوان شركتها، وبكلام حازم قالت لي، حستناك اوعي تنسي ... تركتني متخبطة في أفكاري حتى الصديقة التي جئت ابحث عنها لم تبق لدي رغبة للبحث !!... خرجت وسرت على كوبري الجلاء، نسيمات النيل العذبة تداعب خصلات شعري، يدي تمتد تلملم الشعيرات المتناثرة، فأقف لأخذ شهيقا عميقا لأعيد التوازن لنفسي، ولأفكاري، ووجدت نفسي على شاطئ النيل،أتهالك على الكرسي الخشبي مفكرة بكلام أصدقائي، هل أمزق شرنقة يوسف شاهين؟ كيف؟ وهي شرنقة الصدق والمعرفة، ونهلت على يديه أبجديات وحرفية السينما ؟ .. وأنا اقف معه في فيلم حدوتة مصرية، كانت رؤيتي له لأول مرة حينما زار المخرج توفيق صالح في بغدادوكنت وقتها مساعدة له، كنت حديثة التخرج من أكاديمية الفنون الجميلة، وبقى معنا يوما كاملا في الصحراء وكنت سعيدة به وحدثته عن فيلم العصفور وكان يصغي ألي بانتباه، لم اكن اعرف أن الحظ قد ابتسم لي، التفت يوسف شاهين ألى الأستاذ توفيق صالح قائلا : أنا عايز البنت تعمل معاي ، انهيت عملي مع توفيق صالح، وجاءت دعوة شاهين لي، لم اكن مصدقة، قلت مع نفسي سوف ينساني وأرسل في طلبي المدير العام عبد الأمير معلة وكان مدير عام دائرة السينما والمسرح ووافق على سفري للعمل كمساعدة مخرج مع الأستاذ يوسف شاهين، حزمت حقائبي، الأفكار تتزاحم بين خوف ورهبة من ولوج عالم القاهرة الساحر، حزمت أمري وقررت أن أكون عند حسن ظن الجميع وان اجتاز هذا الاختبار بكل تفوق وجدارة وان استفيد من هذه التجربة وان ابني مستقبلي على يد صناع السينما المرموقين أولهم توفيق صالح وثانيهم عبقري السينما العربية يوسف شاهين كان في إسقبالي في المطار ماريان خوري إبنة أخت يوسف شاهين والمنتج المنفذ لكل أعمال يوسف شاهين، وعلاء كريم الله يرحمه أصبح مخرجا، وسيف عبد الرحمن مدير العلاقات وممثل وهو في كل أفلام يوسف شاهين، من فيلم فجر يوم جديد وحتى الآن، قبل أن اذهب إلى الفندق،أخذوني للحسين، وولجنا خان الخليلي الذي تزينه التراثيات النحاسية والصدفية، كل شيء مزدحم في القاهرة، الناس، المقاهي، المطاعم التي تعمل الفطير المشلتت.

جلست وأنا انظر إلى المنائر والقبب التي في غاية الروعة الهندسية والمعمارية، كان الجو منعشا وكنا في شهر أكتوبر من سنة ١٩٨٢ ، قرصة برد لذيذة تنعش الروح، وتعمل تعادلا مع قلقي وخوفي من ولوجي هذه التجربة الجديدة، خوفا مشروعا وأنا بمدينة الفن ومع عبقري السينما العربية. أوصلوني ألى الفندق في الزمالك ويبعد قليلا عن شقة شاهين، وفي المساء اتفقوا أن يأتي علاء كريم وهو أحد المساعدين يأخذني إلى بيت شاهين حيث يعقد اجتماعا معنا نحن – المساعدين، ....

قيمة شاهين الفنية والفكرية وسيرته الفنية تحدث عنها الكثير ...ولكني اتحدث عن يوسف شاهين الانسان المعلم المربي ... لقد عملت مع شاهين اربعة افلام كمساعدة مخرج ... حدوتة مصرية .. اسكندرية كمان وكمان .. المصير .. كلها خطوة ..وهو اول من وضع الحجر الاساس في مسيرتي الفنية و جعلني احب السينما الى حد العشق ...ابتدا حكايتي .. حينما كان يكتب السيناريو لفيلم حدوتة مصرية ومعه الاستاذ يوسف ادريس ..

جلست وأنا انظر إلى المنائر والقبب التي في غاية الروعة الهندسية والمعمارية، كان الجو منعشا وكنا في شهر أكتوبر من سنة ١٩٨٢ ، قرصة برد لذيذة تنعش الروح، وتعمل تعادل مع قلقي وخوفي من ولوجي هذه التجربة الجديدة، خوفا مشروعا وأنا بمدينة الفن ومع عبقري السينما العربية،

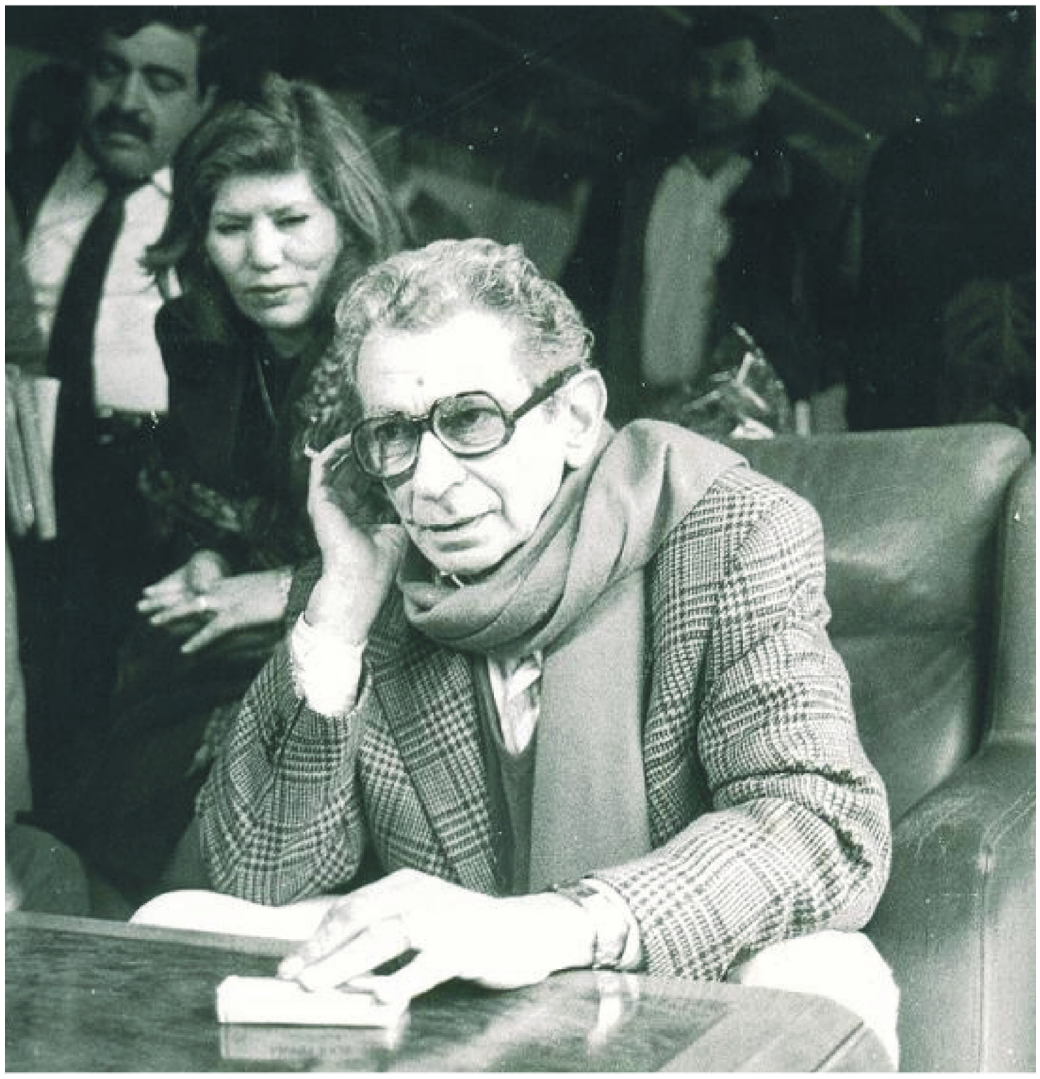

كان النقاش يحتدم الى ان يصل الى قناعة بالمشهد فكريا وهذه التحولات الفكرية والسياسية هي التي وضعت اشكالية شاهين بين النقاد والجمهور ...كان يؤمن ان السينما اداة تغير لا تعطي الحل الجاهز للمشاهد عليه ان يفكر ويفكر وياخذ قراره.. فلذلك سميت سينماه بسينما المثقفين.. فكان يحرص وهو يكتب على ايصال الحقيقة للمشاهد باي ثمن وتحسه مرشدا ينوء تحت ثقل الحقيقة وواجب ايصالها الى المشاهد في اسلوب سينمائي يكون المشاهد معه مفكرا وواضعا للحلول ... في فيلمه حدوته مصرية كان يحرص ان يحرر السينما من الاطر الكلاسيكية القديمة المملة الثرثارة كانت حوارته قليلة يركز على الفكرة ويجعل الاخر يفكرمعه ...تسعة شهور واحيانا اكثر من سنة يعد ورق فيلمه ليل نهار وبعد ان ينتهي من النص الادبي ... يبدأ تحويل تلك المادة الادبية الى الديكوباج – السيناريو التنفيذي للفيلم – يرسم ويحدد زمن اللقطة .. نقرا بامعان ونساله ويرد علينا وياخذ راينا نحن تلاميذه الصغار.. كان معي يسري نصر الله علاء كريم – الله يرحمه نقرأ ونتناقش وما ان نصل الى نقطة مسدودة.. نذهب اليه يشرح لنا ويؤكد على القيمة الفكرية لاي مشهد وماذا يقصد بكل كلمة كتبها ..وحدوتة مصرية خطورته في سيرته الذاتية التي تعامل معها بصدق ومواجهة ذاته بطريقة المكاشفة وحساب الذات بكل صدق .. وتعلمنا منه الايمان بقضية ونقاتل من اجلها طالما نحن مقتنعين بها ومهما كان الثمن ...علمنا التمرد والمشاكسة والدفاع عن حقنا .. لقد اخذت منه الشيء الكثير بالتمسك بما اريده وخلقت لي مشاكل مع الادارة في معطم افلامي التي اخرجتها، وان كل تجربتي مع شاهين لخصتها في كتاب تحت الطبع الان اسمه (شرنقة شاهين الحريرية المعرفية) .

لقد علمني الشيء الكثير .. ولا يبخل باي سؤال.. كنت مبهورة بالعمل معه.. ليلا استلم منه الديكوباج – السيناريو التنفيذي للعمل – يعني اقرأ نظريا ثم ارى التطبيق العملي وهذه فرصة ودراسة عميقة لا تتوفر في اي معهد تعليمي سينمائي ...وحينما يجدني واقفة حائرة كان يحس بي فيبادرني مالك ؟ فاقول لماذا هدمنا الحائط لكي ندخل سكة الشاريوه – التي توضع عليها الكاميرا لعمل حركة – اليس من الممكن ان نستعمل عدسة الزوم ونخلص من وجع القلب وهذا التاخير ؟؟ نظر الي وقال بالاستراحة اشرح لك ... وفعلا بالاستراحة بدا جو –اسم التدليع الذي يحب ان نناديه به – بدا يشرح لي الفرق بين هذه اللقطة ولماذا لا يستعمل عدسة الزوم .. وشرح لي اختصاص عدسات الزوم والتي يعتبرها ضعف للمخرج لكي يلم مشهده بسرعة وينهي موضوعه ...من حسن حظي انا عملت معه فلمين عن سيرته الذاتية وكان ايماني به يزداد يوما بعد يوم لصدقه وحرصه على العمل ..واخذنا منه متابعة العمل من بدايته الى النهاية واشرف عليه بنفسي الى يومنا هذا ... كان نشيطا لا يتعب ولا يمل من العمل.

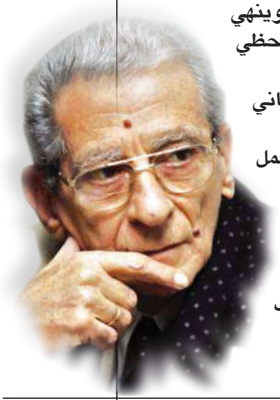

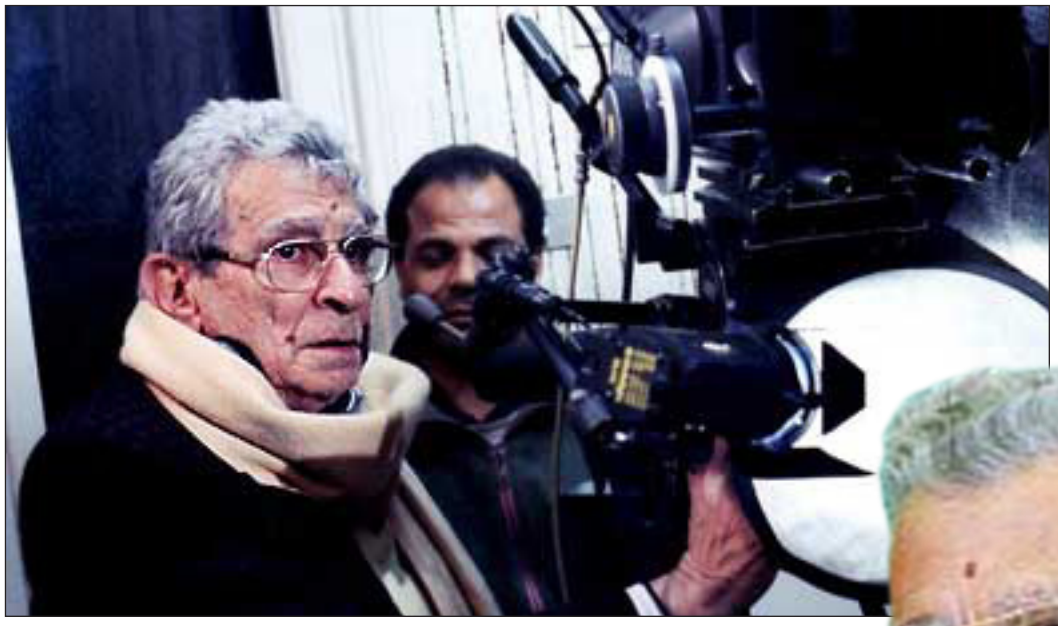

يوسف شاهين .. اسم لامع في عالم صناعة السينما في العالم وأهم مخرجي السينما العربية .. ستظل أفلامه تثير الكثير من الجدل .. الكثير من المشاهدين لا يفهمون أفلامه .. والكثير منهم لا يحب ما يقدم من أعمال ولكنك مجبر على تقديره واحترامه ..
هذه قاعدة لا تنطبق الا على فنان ومخرج مثل يوسف شاهين أو ما يطلق عليه (جو) .. (الناصر صلاح الدين) و(الأرض) و (عودة الابن الضال) و(فجر يوم جديد) و(اسكندرية ليه) و(المصير) و(العصفور) ووو أفلام كثيرة لابد للكل أن يحترمها .. نسمع عن نجم الشباك مثل عادل امام مثلا أو نبيلة عبيد أو محمود حميدة أو ليلى علوي، كلهم نجوم شباك وكلهم ممثلون وانما يوسف شاهين المخرج الوحيد الذي فرض نفسه في قائمة نجوم الشباك.

يوسف شاهين :

طلب مني طارق عزيز أن أعمل فيلما عن العراق فرفضت

حوار /حسين مشكور

المخرج الوحيد الذي يحضر لمشاهدة أفلامه من أجل اسمه وليس من أجل أي ممثل في الفيلم..وحتى لو كان كل فناني الفيلم من الوجوه الجديدة وغير المعروفة. دائما أفلامه تثير الجدل ولكنها ليست كفيلم (١١ سبتمبر) الذي يتناول أحداث التفجيرات التي التهمت أبراج التجارة العالمية في قلب امريكا.. نريد أن نعرف ما حكاية هذا الفيلم؟. لنسمع شاهين ماذا يقول،،، أنا الوحيد الذي كنت صريحاً وقلت الحقيقة التي تدور في داخلي لا يهمني زعلهم ولكني قلت ما يدور بداخلي.. لم أقل لهم أنكم تستحقون ما حصل لكم ولم أقل لهم الفيلم أنني فرح لما حصل لكم وانما قلت لهم انني كنت أتوقع كل تلك الأحداث وكل ما حصل في ١١ أيلول.. بسبب اسلوب التعاطي السياسي للادارة الاميركية مع القضايا العالمية والعربية تحديدا والذي يثير الاشمئزاز والقلق لا استطيع التغاضي عما اشاهده على شاشة التلفزيون، من نتائج الاعمال التي تقوم بها الادارة الاميركية في فلسطين والعراق عملت أمور كبيرة حتى أنني توقعت ما حصل لها في ١١ أيلول .. ولكن كانت أموراً وأحداث متوقعة وذكرت كذلك في الفيلم أن (اسرائيل) تواجه مقاومة كبيرة من الفلسطينيين. وهذا طبعا أغضبهم لأنهم يريدون أن لا يكشفوا حقيقة هذه المقاومة ومدى حجمها أو أن تظهر للناس.. وكيف لي أن أتحدث عن الابن المدلل.. وكيف كان رد فعلهم ؟رد فعل غاضبة جدا.. وأين تم تصوير مشاهد الفيلم ؟ أغلب مشاهد الفيلم تم تصويره في القاهرة وبعض المشاهد صورت في مدينة دبي الاماراتية التي رأيتها أجمل من نيويورك.. والفيلم مدته ١١ دقيقة حسب شروط مسابقة الفيلم .

×ولماذا تم تحديد مدة الفيلم بـ١١ دقيقة فقط ؟

– المسابقة كانت بمناسبة مرور عام على أحداث ١١ سبتمبر.. المناسبة كلها أرادوها أن تحمل الرقم ١١ حتى المخرجين المشاركين فيها ١١ مخرجاً فقط من أحدى عشرة دولة في العالم.

×هل سببت لك هذه التحديات منعاً من السفر الى امريكا ؟

– لا طبعا.. لا يستطيعون لأنها ستصبح فضيحة.. حتى أنني أتذكر أنه عندما انتهت مهمة السفير الامريكي في القاهرة وجاء البديل عنه لتسنم مهمته كنت قد فكرت أن التقيه من أجل التعرف عليه وأطرح عليه فكرة عملنا التي تتطلب دائما السفر الى امريكا وما مدى التعاون الذي يجب أن يمنحه لنا لتسهيل عملنا من ناحية منح تأشيرات الدخول في حال احتجنا لها.. فاتصلت بالسفارة وطلبت مقابلته فوجدته يكلمني وبدلا من أن ألتقيه في السفارة قال لي أنا مستعد أن أزورك في مكتبك.. وفعلا جاءني الى المكتب ووعدنا بتقديم كل ما نحتاجه.. أنا أجد غرابة في تعاملهم فأحيانا يريدون مصالحتي ومن ناحية أخرى يرفضون طلباتي ورغبتي .

× فيلمك (الاسكندرية .. نيويورك) الأخير كان الاسم المقرر له قبل التصوير (الغضب) فما سبب تغيير تسمية الفيلم؟

– بصراحة شاهدت الفيلم ووجدت أنه يحتوي على نوع من الرومانسية.. واسم الغضب لا يناسبه فاستبدلته بـ(الاسكندرية .. نيويورك) .

× حب يوسف شاهين لامريكا هل تحول الى غضب ؟

هذه الحالة كانت حتمية وهي مازالت .. الحب كان نابعاً من دراستي هناك وأول علاقة حب لي عندما كان عمري ١٧ سنة كنت هناك أيضا وبقيت أرى امريكا حتى وأنا في عمر ٣٠ و٣٥ سنة وانا أكن لها كل الحب ولكن هذا الحب تلاشى بسبب أفعالها وكراهيتها للعرب وللمسلمين.. أنا كنت أدرس في امريكا .. وتلقيت تعليمي على يد مدرسين جيدين وكانت علاقتي قوية مع أصدقائي وزملائي هناك كانت ظروفي المادية الصعبة للغاية وكنت أتوقع في أية لحظة باتصال من والدي يطلب مني العودة الى مصر وترك امريكا.. كان أصدقائي يخافون من هذه اللحظة كانوا يبكون خاصة وأنهم كانوا يعرفون جيدا أنني (شاطر) في دراستي وسأحصل على أعلى الدرجات في تاريخ المعهد الذي كنت أدرس فيه.. كان هذا فعلا صراع ولكني ولله الحمد تغلبت عليه وأنهيت دراستي في المعهد واستلمت الشهادة .

×وبعدها؟ – بعدها نكروني وكأني غير

يوسف شاهين ظاهرة فنية يصعب تكرارها

د. عمار هادي العرادي

موجود رغم أن الجميع أشاد بي في كل بلدان العالم واستطعت أن أحصل على جوائز من مهرجانات عالمية كثير كمهرجان برلين ومهرجان كان عن فيلم (المصير).. حتى أنني أتذكر موقف حصل لي في مهرجان كان فقد كانت تجلس الى جانبي فتاة امريكية وعندما أعلنوا اسمي وقف الجمهور وصفق لي بحرارة فنظرت الي وصارت تصفق معهم وكان عندي احساس أنها لا تعرفني.. وبعد المهرجان سألت أحد الحضور في المهرجان عني وقالت له (مين القفل ده ؟).. فالعلاقة بقيت مركبة ولا أستطيع أن أنسى الأيام الجميلة التي قضيتها هناك والشريحة الواسعة من الأصدقاء أغلبهم في نيويورك.. لم ينزع لوني أبدا طوال علاقتي بهم وحاولوا كثيرا مساعدتي.. النظام الرأسمالي لايريد منافسة من أية جهة غير امريكية ولو فزت بعشرة دولارات تجدهم يغضبون ويقولون نحن أولى بها.. تخيل هل من المعقول لفيلم مصري بسيط منافسة أفلام السينما هناك.. لم أكن أفهم هذا الشيء في البداية ولكن وجدت هذا الرفض من خلال مشاركتي في المهرجانات هناك.. وبعد فترة من الزمن صاروا يعملون لي تكريما في نيويورك وفي الجامعات الامريكية ولكن هذا التكريم جاء بعد أن انتشر عداؤهم للوطن العربي.. نعم هناك حب ولا أنكر هذا الحب ولا أستطيع أن أحوله الى كراهية.. خصوصا أنا لا أعرف أن أكره.. أتألم كثيرا لما يحدث في العراق وفي فلسطين بسبب امريكا .. أنا غضبان جدا لما يقوم به الامريكان اليوم على الكثير من الدول العربية والاسلامية .. وخصوصا العراق هذا البلد المتحضر وبلد التاريخ والحضارة لا يمكن أن يقبل ما يحصل له من قبل الامريكان.. الانسان العراقي واع وفاهم ولا يقبل بأية اهانة .هل يمكن بعد كل هذا وآلامي التي أعيشها مع الشعب العراقي والشعوب العربية والاسلامية الأخرى وتريدني أن لا أغضب.. يريدون أن يكرموني ليسكتوني.. هذا طبعا لايمكن أن يحصل لقد حاولوا معي منذ أن كان عمري ١٩ سنة وهم يحاولون أن أعمل معهم ولكني رفضت وسأبقى أرفض .وهنا أعود الى سؤالك.. هناك حب وهناك غضب.. الحب لأصدقائي ولعملي ولذكرياتي ولحبي للعمل السينمائي هناك بالمقابل هناك غضب لما تقوم به الحكومة من عداء للعرب وللاسلام. وما سبب تجاهلهم ليوسف شاهين؟ سبب مادي .. أولا وأخيرا.. يريدون العمل كله لهم فقط.. انا ليس لدي أي عداء مع أية جهة كنت أدرس مع زملاء من ١٥ دولة ومن أربع ديانات مختلفة وليس هناك أي كراهية لأحد.. عدائي فقط مع اسرائيل ولكن عندما يفكرون أنني جئت لأبيع من خلالهم وأدخل اللغة العربية الى نطاق عالمي فهناك رفض فصاروا يحولونني على الجامعات الامريكية لعرض أفلامي.. وافقت ولا أستطيع أن أرفض وعرضت العديد من أفلامي في الجامعات الامريكية الكبرى واستطعت أن أقول ما أود قوله وشاهد أفلامي أكثر من٥٠٠ امريكي وهل أفلامك اليوم ممنوع عرضها في امريكا ؟لا أبدا .. بل بالعكس هناك طلب كبير عليها من قبل الجامعات الامريكية والمهرجانات الامريكية .في فيلم (الاسكندرية .. نيويورك)

متمرد.. لا أخاف من سلطة ولا أخاف من بوليس ولا أخاف من سجون أو حروب أو أي شيء.. أعتقد أن هناك شيئاً ناقصاً في دماغي ويحصل اللي يحصل. وهناك الكثير سيعمل عن العراق وأفضّل أن يكونوا مخرجين عراقيين وممثلين لأنهم هم أولى بمن سيطرح موضوع بلادهم.. هناك مخرجون جيدون في العراق بامكانهم أن يعملوا.

× سمعنا أن هناك أسماء فنية انسحبت من المشاركة في الفيلم وهذا لم يحدث مع يوسف شاهين أبدا من قبل .. فما صحة هذا الخبر ؟

– لا أبدا لم ينسحب أحد وانما هي الفنانة نور لم أتفق معها لأنها كانت مرتبطة بعمل آخر ومن شروط التعامل معي أن يكون الفنان متفرغاً تمام المدة ستة أشهر على الأقل ولا يشارك في أي عمل آخر.. وعليه لم يحصل اتفاق معها لأن هذا من وجهة نظري صعب جدا .. ان يرتبط الممثل بأكثر من عمل .

× كيف تم اختيارك للوجوه الجديدة في الفيلم أمثال يسرى الصغيرة وأحمد يحيى ؟

– يسرى فتاة جميلة جدا.. تجيد الرقص وتعمل في الفيلم مع الشاب أحمد يحيى أول راقص في الأوبرا واتضح لي أنه ممثل عبقري وخطير جدا وسوف تراه ان شاء الله في الفيلم .. لديهما موهبة استطعت أن أستغلها تماما في الفيلم

× هل أنت متمرد ؟

– (أنا أخلاقي زي الزفت).. نعم متمرد.. لا أخاف من سلطة ولا أخاف من بوليس ولا أخاف من سجون أو حروب أو أي شيء.. أعتقد أن هناك شيئاً ناقصاً في دماغي ويحصل اللي يحصل .

× ألم تفكر بعمل فيلم عن العراق ؟

– أنا رحت العراق قبل الاحتلال.. سألوني هناك هل ستعمل عملاً عن العراق قلت لهم أنا جئت زيارة للعراق لمدة ٢٤ ساعة فقط لأرى وأشاهد الوضع والحالة الاقتصادية هناك.. ذهبت الى السوق والمستشفيات وأعطيت محاضرة للمخرجين العراقيين في الجامعة .. طلب مني في وقتها وزير الخارجية طارق عزيز أن أعمل فيلماً للعراق فقلت له هذا مش شغلي أنا جئت للشعب العراقي.. وبصراحة كنت متوقعا أن يطلبوا مني ذلك .

× وهل فكرت الآن أن تعمل فيلماً عن العراق بعد هذه الأحداث ؟

– هناك الكثير سيعمل عن العراق وأفضّل أن يكونوا مخرجين وممثلين عراقيين لأنهم هم أولى بمن سيطرح موضوع بلادهم.. هناك مخرجون جيدون في العراق بامكانهم أن يعملوا.

× ولكن أعمالك تصل الى العالمية بسرعة وهذا صعب على السينما العراقية في الوقت الحاضر ؟

– خليهم يحاولوا مثلما حاولت في السابق.. يوسف شاهين لم يصل بسهولة.. واجهت الكثير من المشاكل والمصاعب والعراقيل.. فليحاولوا.

هذا الحوار اجري عام ٢٠٠٥ في القاهرة

في عالم الصحافة و النقد ،ما ينفع الناس هي المعلومة. لابل ان اساس كل كتابة و جوهرها هي المعلومة، التي تبقى و تستقر في ذهن القارىء. و يوسف شاهين كظاهرة فنية انسانية مشاكسة مجبولة عل التحدي و المغامرة يصعب تكرارها !. و لا اظن ان هناك معلومة ما قد اغفلت في حياة هذا الفنان ولم يتعرض لها النقد.. فضلا عن الكتب والرسائل و البحوث التي تناولت ظاهرة يوسف شاهين السينمائية. ولا يكاد هناك ناقد سينمائي غفل عن ابداع هذا الفنان. اذا لم يكن الجميع قد تحرقوا و تحمسوا بشدة للحديث عنه وعن افلامه سواء كان ذلك بالتعريض المسّهب او التقريض المذهب .. الذي لم يسلم منه !.و هو من طبائع الامور، اذ ليس بالضرورة ان تكون الرؤى متطابقة ، ولن تكون كذلك. لان الجانب الفكري في السينما هو المقياس النقدي الامثل.

وهذا ما يُشكل الكتابة عن يوسف شاهين، الذي تثير افلامه جدلا و انقساما ، انطلاقا من تقنيته و اسلوبه المتطور، ومن مضامينه ومواقفه التي توصف لدى البعض بالمبهمة. غير انني اجده فنانا عاش ومضى في زمن صعب ؛ كلمّا ما يزداد تعقيدا وصعوبة ومشقة. لكنه كان بمشاكسته و تحديه منفردا ومتميزا، يمارس هوس التحريض لاجل حياة انبل و اشرف. سبعة وخمسين سنة قطعها للفن من اثنين وثمانين سنة مع الحياة..

بابا امين اول افلامه عام ١٩٥٠ و كان عمره آنذاك اربعة وعشرين سنة عاد من دراسته في امريكا ليسند له الاخراج دونما أن يمر بمراحل الممارسة كمساعد اخراج!. و يذكر انه في دراسته درس الاخراج المسرحي ، لذلك لا يخفى على المتابع او المتذوق انه استخدم تقنيات المسرح في فيلمه (حتوتة مصرية) و (اسكندرية كمان وكمان) ، وكذلك اخراجه لمسرحية (كاليكولا) عام ١٩٩٢ ضمن مشاريع مختلفة لعدد من غير الفرنسين للمسرح (الكوميدي فرانسيز) الفرنسي واستخدامه الغناء والانشاد من خارج الكادر في بعض افلامه مثل (جميلة بوحريد) (الارض) (عودة الابن الضال) و(المصير). ولان سرد بلغرافيا عن يوسف شاهين وانجازاته الفيلمية متيسرة ومعروفة، الا ان اللافت انه اخرج ست مرات فيلمين في السنة في مشاورة مع الفن (١٩٥٢/١٩٥٦/١٩٥٨/١٩٦٠/١٩٨٦/١٩٧٠) واخرج ثلاثة افلام انتاج مشترك مع الدول الاوروبية (رمال من ذهب) مع اسبانيا (الناس والنيل) مع الاتحاد السوفيتي. سابقا. (وداعا بونابرت) مع فرنسا. وهو انتاج متفرد ، تميز انتاج يوسف شاهين بالنوعية وهو مقل قياسا لحياته الفنية الطويلة التي عاشها. و قد حصل على الجائزة المستحدثة لمرور نصف قرن على مهرجان (كان) السينمائي لمجمل اعماله الكاملة و هي جائزة تمنح كل نصف قرن تقديرا لمشواره الطويل وقد اهداها لبلده مصر التي ولد عليها .

يوسف شاهين فنان راديكالي لا يحارب طواحين الهواء بالرغم من الكتابات النقدية التي تثيرها افلامه و خصوصا فيلمه (الاسكندرية ليه) الذي واجه بسببه في حينها تهم محاباة الصهيونية و نظام السادات مما حدا لطفي الخولي المثقف اليساري المعروف للرد و الدفاع المقابل عل مثل هذه التأويلات.

يوسف يقول: (انا افكر اذا انا يوسف) وكان المشاهد يتنفس انفاسه في فيلم (الناصر صلاح الدين) عاد ١٩٦٣ و يتمثل معه راديكاليته القومية، وشدة تأثره بجمال عبد الناصر، والحماسة الثوية و القومية التي كانت سائدة في وجدان جيله التي كانت نقطة صراع واستقطاب دولي. وهذا الفيلم قابل للتسويق في يومنا هذا لشحنه بالتسامح الديني مشكلة العصر الراهنة. وكذلك بقية افلامه التي كلما مرّ عليها الزمن تبقى قابلة للقراءة والتأويل.

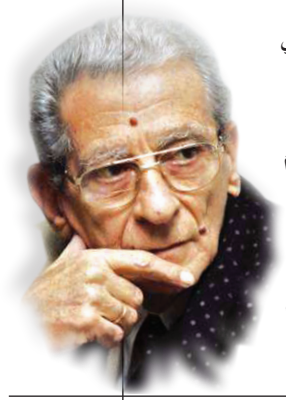

يوسف مخرج صاحب قضية واضحة منذ بداياته، ففي فيلم (صراع في الوادي) يُعرّي فساد النظام السياسي و الاقتصادي. وفي فيلم (باب الحديد) يغوص في قاع المدينة ومجتمع المقهورين. و فيلم (الارض) ملحمة النضال الطبقي و القيم و الاخلاقيات. والاختيار والعصفور والابن الضال يفضح المواقف الانتهازية و صراع الذات والانهرام امام استشراف الامل و الثبات المبدئي ، وفي فيلم (المصير) يكشف عن الارهاب الفكري البغيض الذي يصادر الحريات . الذات الفنية والانسانية ليوسف ذات منطلقة من الوطن الى العالم اجمع.

يوسف شاهين وهب اكثر من خمسين عاما من نشاطه الابداعي لقضية الانسان وهو واحد من الاساتذة الذين اسسوا للاخراج وعلوم السينما كمعلم.

تمتد السيرة السينمائية والفنية للمخرج الكبير يوسف شاهين لأكثر من ستين عاماً.. بدءاً من دراسته للفن السينمائي في الولايات المتحدة الأمريكية لينطلق بعدها في مشواره السينمائي الطويل وليحصل على الشهرة الأوسع بين المخرجين العرب وليرتقي إلى مصاف العالمية مشكلاً لمدرسة سينمائية جديدة كونت منه شخصية إشكالية إلى حد ما..

ولا يختلف إثنان من محبي ومتابعي السينما على عبقرية شاهين الإخراجية وتفرده بنمط خاص في الإسلوب الإخراجي، فمعظم النقاد يتفقون على أن أفلاماً مثل - باب الحديد - الأرض - المصير، هي أهم ما أنتجت السينما العربية عموماً والمصرية خصوصاً، وقد إختلف النقاد حول خصوصية صنعة شاهين السينمائية بين معجب ومتذمر.

يوسف شاهين... سينما السيرة الذاتية

كاظم مرشد السلوم

تنوعت أفلام شاهين في مواضيعها فمن أفلام الصراع الطبقي مثل فيلم صراع في الوادي - الأرض - عودة الإبن الضال - إلى أفلام الصراع الوطني والإجتماعي مثل - جميلة بوحيرد - وداعاً بونابرت - إلى سينما التحليل النفسي المرتبط ببعد إجتماعي مثل - باب الحديد - الإختيار - فجر يوم جديد - والتي شكلت تجربة شاهين الفنية والثرية فناً وإبداعاً لينافس بالتالي أشهر المخرجين وليتصدر بجدارة لائحة الإبداع الإخراجي.

وبعد هذه الرحلة الناجحة يتحول شاهين إلى منحىً سينمائي جديد هو.. سينما الذات.. أو سينما السيرة الذاتية التي نحن بصددها.. باكورة هذه الأفلام السينمائية كان فيلمه الشهير - إسكندرية ليه - إنتاج١٩٧٨ الذي أدى أدواره كل من - فريد شوقي - محسنة توفيق - أحمد زكي - عزت العلايلي - نجلاء فتحي - يحيى شاهين - محمود المليجي.

هذا الفيلم خلق تغييراً جذرياً في سينما يوسف شاهين فقدم من خلاله محاولة رائعة للمزج بين العام والخاص، المزج بين التأريخ الفردي وتأريخ وقضايا الوطن وقد تضاربت آراء النقاد حوله وبالتالي فسر الفيلم إجتماعياً وسياسياً بطرق مختلفة ومن جهات نظر مختلفة بالأساس، لكن الجميع اتفقوا في النهاية على أن فيلم - اسكندرية ليه - كان حتى ذلك الحين أفضل ما أنتجته السينما العربية.

كان شاهين جريئاً في طرحه لموضوعة الفيلم حتى إن الكثير من الدول التي تربطها علاقة جيدة بالمخرج قد منعت عرضه لسنين طويلة..

ووجد فيه بعض المتابعين تفسيراً للقطتين أساسيتين في إثنين من أهم أفلام شاهين وهما - العصفور إنتاج ١٩٧٢ - وعودة الإبن الضال ١٩٧٦ في العصفور لقطة نشاهد من خلالها شاحنات عسكرية تحمل القوات المصرية لخوض حرب حزيران تتقاطع معها شاحنات تحمل مواد مسروقة من المال العام لحساب لصوص كبار واللقطة في عودة الإبن الضال نشاهد فيها علي الذي تنتظره العائلة لحل مشاكلها يخرج من السجن متأملاً الشوارع فيتقاطع مع جنازة الرئيس عبد الناصر.

يقول شاهين إن فكرة الفيلم قد راودته حين كان يمرّ بأزمة صحية معتقداً أنه بات قريباً من الموت لذلك أراد أن يكرس فنه كلياً للطابع الذاتي.. وبقدر كون - اسكندرية ليه - فيلم سيرة ذاتية عن شاهين نفسه إلا أن الفيلم تحدث عن المدينة والكائنات البشرية التي عاشت في تلك الفترة وخاض في السياسة والحرب والموت والسلام، إستطاع شاهين في هذا الفيلم أن يوفّق بشكل أخاذ ورائع بين جميع هذه المواضيع.. مزاجاً بين البصري والحدثي بإسلوب لم يسبق لمخرج عربي أن استخدمه.

أحداث الفيلم تدور في مدينة الإسكندرية في أربعينات القرن الماضي وتتحدث عن مراهق (يحيى) يوسف شاهين فتىً يحلم بالسفر إلى أمريكا لدراسة السينما.. لكنه كان يتابع كل ما يجري في مدينته وتأثير الحرب العالمية عليها وإحتلال الإنكليز لها والتمهيد لإقامة دولة إسرائيل وهجرة اليهود.. كل هذه التفاعلات والتداخلات تبقى تتفاعل في داخله حتى وصوله إلى نيويورك في لقطة لتمثال الحرية وهو يضحك بهستريا من الفتى المغترب من شواطئ نيويورك.

يوسف شاهين عاش كل هذه الأحداث ووضعها في بودقة التحليل السينمائي بكامل شخصياتها: الإنتقائي "عزة العلايلي" الباشا "فريد شوقي" اليهودي "يحيى شاهين" كل هذه الشخصيات هي شخصيات عابرة لو قورنت بيحيى "محسن محيي الدين" وسارة "نجلاء فتحي" وبقية الشخصيات.

حين عرض هذا الفيلم في صالات السينما إعتقد الكثيرون أن شاهين إنتهى سينمائياً وهو في هذا الفيلم إنما يختم سيرته ويعلن عن وصيته. لكنه في الحقيقة كان يعد العدة للمضي قدماً في إستكمال سيرته الذاتية ليخرج رائعته السينمائية التالية، حدوتة مصرية إنتاج عام١٩٨٢.. يستعيد من خلالها نفسه منذ الطفولة من خلال يوسف الصبي الصغير.

الفيلم من بطولة نور الشريف - يسرا - محمود المليجي - ماجدة الخطيب - سهير البابلي - ليلى حمادة وغيرهم.. حدوتة مصرية تزاوج غريب بين أجواء غرائبية وواقعية شديدة النبرة، حدوتة شاهين مع ثلاث نساء أمه وأخته وزوجته..

حدوتة يمزج فيها صبي صغير هو يوسف الذي يخرج من أعماقه ليسأله عن أفعاله في إستعادة رؤى مساره السينمائي والحياتي.

يحاول شاهين أن يعقد مصالحة عميقة مع الذات من خلال محاكمتها ومحاكمة الشخصيات التي رافقت رحلة يحيى الرجل ويحيى الطفل (تلك الرحلة هي رحلة ذكريات شاهين في صحبة فرويد وماركس ويوسف شاهين السينمائي اللامع الذي تتعمق نزعته الإنسانية مع السنين" محكمة تعقد جلساتها داخل قفص صدري، محكمة يحاول من خلالها يحيى "الرجل" أن يهرب من يحيى الطفل ويهرب من تذكره.

الفيلم مأخوذ من فكرة وضعها الكاتب يوسف إدريس في قصة عنوانها "القاتل" مستوحاة من تجربة مر بها إدريس ووضعها في تصرف شاهين الذاتي الذي يتصور حالة من الصراع في قلب رجل يحاول دفن ماضيه.

هل سنشاهد فلما يتحدث عن سيرة شاهين الفنية والحياتية من اخراج احد تلامذته الكثيرين الذين تتلمذوا على يده؟ اعتقد حتى لو حصل هذا فأن شاهين افضل من تحدث عن شاهين في مجموعة افلامه عن سيرته الذاتية التي يحاول الناقد وليد شميط ان يرصدها في كتابه (يوسف شاهين حياة للسينما).

يوسف شاهين.. كتاب السينما

عوّاد ناصر

بعد ذلك يأتي فيلمه الجريء جداً، هذه الجرأة متأتية من تعرية ذاته عاطفياً وجنسياً، وهو ثالث أفلام السيرة الذاتية لشاهين هو فيلم اسكندرية كمان وكمان إنتاج عام ١٩٩٠.
فيلم نشاهد فيه شاهين قد أصبح سينمائياً معروفاً حيث يلعب شاهين بنفسه دور البطولة فيه ليتحدث من خلاله عن سيرته الذاتية وعن مهنة السينما وعن الحب حيث يتطرق لعلاقة المخرج بممثلة شابة إكتشفها وأغرم بها، ولا يفوت شاهين في فيلمه هذا الحديث بصراحة وواقعية عن أسباب تراجع السينما المصرية من خلال تطرقه إلى إضراب يخوضه فنانو السينما ا لمصرية أواخر الثمانينات، ورغم خصوصية الفيلم كونه فيلم سيرة ذاتية الا أنه حقق نجاحاً كبيراً من خلاله يوسف شاهين، جمهوراً جديداً متعاطفاً ومقدراً للمنجز السينمائي الكبير والثر الذي حققه من خلال سيرة فنية رافقت الحدث السياسي والإجتماعي وجسدته بصورة سينمائية رائعة.
اليوم وبعد تسعة عشر عاماً على إنتاج آخر أفلام شاهين التي تعنى بالسيرة الذاتية وبعد وفاته هل سنشاهد فلما يتحدث عن سيرة شاهين الفنية والحياتية من اخراج احد تلامذته الكثيرين الذين تتلمذوا على يده... اعتقد حتى لو حصل هذا فأن شاهين افضل من تحدث عن شاهين في مجموعة افلامه عن سيرته الذاتية التي يحاول الناقد وليد شميط ان يرصدها في كتابه "يوسف شاهين.. حياة للسينما ، يستعرض شميط في هذا الفصل علاقة شاهين ببلده كونه قضيته الاولى والاخيرة، المبتدأ والخبر، ليحولها الى افلام وشخصيات ناطقة بالحياة، ناس مصر هي الجماهير التي تخرج للشارع مرددة " الشارع لنا " وهي تردد مع بهية في العصفور " حنحارب " وهي العمال والمهندسون الذين بنوا السد العالي في " الناس والنيل " .. انسان مصر هو ابو سويلم الفلاح الطيب في الارض، وهو احمد المهندس الزراعي في " صراع في الوادي " وهو قناوي المحروم في " باب الحديد وهو علي الذي يعود مهزوما بعد سنوات النضال في" عودة الابن الضال " هي حنان الصحافية الشجاعة في " الاخر " .
وفي مصر ايضا العائلة البرجوازية وعقليتها، والبرجوازية وجشعها، والسلطة ومؤسساتها وانتهازييها، وفيها ايضا القمع والكبت والحرمان والاستغلال، والاتجاهات السلفية والرجعية.
ومن خلال افلامه يصفي شاهين حساباته مع هؤلاء ويحذر منهم بموقف صريح وواضح لا تردد فيه.. انها سينما الموقف وسينما التأمل وسينما الرؤية المستقبلية، يتأمل شاهين من خلالها مصر وانسانها، وفي تجربة نادرة في السينما العربية وبجرأة كبيرة، يتحدث شاهين عن نفسه وهواجسه وحبه وعقده وطموحه وكبته وعذابه وافلامه..
ومن ثم يعود الى النفس البشرية في ثلاثة من اهم افلامه ، المهاجر، المصير، الاخر..
ويواصل شميط حديثه عن شخصية شاهين بانه حسب ما يقوله الذين يعملون معه واصدقاؤه بانه خجول، وفاجر ايضا، لان هذه وسيلة في الدفاع عن نفسه فكريا وفنيا وسياسيا واقتصاديا. هذا سلاحه، وهو عصبي، مرح، قلق، عنيد، صلب ، طموح، نجم، هذا هو يوسف شاهين.
السينما عند شاهين معركة وسلاح، وهي ليست وسيلة نضال فحسب، انها بحد ذاتها عملية نضالية، وهو يخوضها مع كل فيلم جديد له، لكل ما يملك من اسلحة وامكانات.
ومع ذلك فقد تعرض لاساءة مخجلة عبر تحامل النقاد عليه، وتعرضهم لافلام مثل " باب الحديد " ، " عودة الابن الضال " ، " الاختبار " ليتهم بانه رمزي معقد ، صعب، وقيل فيه كوزمو بوليتي وانه غربي الثقافة وان امريكا حلمه.
وحدها افلامه كانت الكفيلة بالرد على مثل انتقادات كهذه، فبعد اكثر من ٤٢ عاما، فان باب الحديد مثلا، هو اكثر الافلام المصرية التي يطالب الجمهور بعرضها في التلفزيون.
شاهين الشاب الذي نشأ وسط عائلة اسكندرانية من ا لبرجوازية الصغيرة وتمكن بصعوبة شديدة من جمع ما يكفي من المال لدراسة السينما في باسا دينا في الولايات المتحدة، لم يتردد عند اول فرصة له في الوقوف وراء الكاميرا، في التعبير عن تذمره من الاحلام البرجوازية لعائلته وفي جعل فاتن حمامة تغني " اشكي لمين اهلي العائلة البرجوازية شغلت شاهين طويلا، فهي في " باب امين " تنهار بسبب سذاجة الاب وعدم فهمه إشكالية المال، وتنهار في " سيد القطار، بسبب تهور الاب، وفي اسكندريه ليه" و " حدوته مصرية " تتمزق لاكثر من سبب، وتتفرق وتتبعثر في وداعا بونابرت، وتنفجر في بحر من الدم في عودة الابن الضال، وفي الاخر، تسيطر عليها نزعة امتلاك ابنها.
يتحدث الكتاب بعد ذلك عن وظيفة الفن من وجهة نظر شاهين، ويستعرض بعد ذلك اهم افلام شاهين مثل الناس والنيل، الارض، الاختيار، العصفور، عودة الابن الضال، حدوتة مصرية، الوداع بونابرت، اليوم السادس، اسكندرية كمان وكمان، المهاجر، المصير، الاخر وظروف انتاج كل فلم من هذه الافلام وارتباطه بقضية اجتماعية او سياسية.
الفصل الثاني يتناول مجموعة لقاءات مع شاهين يطرح من خلاله نظرته الى الكثير من قضايا الوطن والفن. كذلك يتحدث فيها عن تحولاته الفكرية التي ساهمت الى حد ما في اصراره على اخراج عدد من افلامه.
ففي رد اجابته على سؤال " هل كنت تعتبر نفسك يساريا " يقول لم يكن هناك في تلك الفترة اي تطبيق يساري صحيح، كنت في صفوف اليسار، ولكن اي يسار؟ كلمة اليسار واسعة جدا، يجب ألا نقدس الكلمة، ولا حتى نقدس يساريتنا اليوم، علينا طرح الاسئلة باستمرار ، نبحث عن الخطأ وعن الصواب، هزيمة ١٩٦٧ فجرت عندي اليسارية العلمية ، قيل لنا اننا اقوياء وجاهزون وعندنا ٨٠٠ الف رجل على الجبهة ماذا حصل سخروا منا وصفعونا.
يتحدث شاهين بعد ذلك عن الانتاج والتوزيع والانتاج المشترك وضرورة الجمع بين الفن والصناعة.
ليجيب بعد ذلك عن الاسئلة التي تدور حول افلام مثل عودة الابن الضال يقول: لن اكون غبيا كي يفهمني الاخرون " وعن حكاية الوعي في اسكندرية ليه، وعن " وداع بونابرت " لم آت فرنسا فاشلا في بلدي وانا لا ابيع نفسي الى احد.. ويتحدث عن التاريخ والديمقراطية والاصولية في اسكندريه كا ان وكمان والسياسات المغلوطة في اليوم السادس، وحول العلم والقدوة في المهاجر، والعودة الى زمن الاندلس في المصير.

الفصل الثاني يتناول مجموعة لقاءات مع شاهين يطرح من خلاله نظرته الى الكثير من قضايا الوطن والفن. كذلك يتحدث فيها عن تحولاته الفكرية التي ساهمت الى حد ما في اصراره على اخراج عدد من افلامه

عندما أطلق يوسف شاهين شريطه العاصف (العصفور) أحسسنا نحن النظارة، في العراق، والعالم العربي، بأنه واحد منا، لأنه مس أكثر أوتارنا حساسية: الهزيمة العربية ومقاومتها الفلسطينية من وجهة نظر خارج الإعلام العربي والشعار الرسمي المرفوع، بل انطوى الفيلم على ما يوقظ الحساسية العامة من سرير التخدير الذي أراد لنا أحمد سعيد، وجه الناصرية المهزومة، أن ننام على طوبياً، قبل أن يجيبه جمال عبد الناصر باستقالته الجريئة في سابقة (رئاسية) عربية لم يجرؤ علىها بعده غير العقيد السوداني سوار الذهب، وهما نادرتان رئاسيتان عربيتان لن تتكررا لاحقاً!
كنا في بغداد، قد شاهدنا الفيلم وتعرفنا، بين ما تعرفنا علىه، ذلك الإيقاع الغريب الذي لا يشبه إيقاع حسن الإمام وبقية الرهط التقليدي في السينما المصرية.
ثم تكررت، معرفتنا، بل دهشتنا، عندما حضرت الفنانة الكبيرة محسنة توفيق إلى بغداد، بعد عرض الفيلم، بداية السبعينيات، إلى أكاديمية الفنون الجميلة، وسط ترحيب حار من الحاضرين، بينما قدمها صادق الصائغ، لتتحدث عن تجربتها الشخصية في الفيلم، ثم غنت تلك الأغنة الشهيرة للشيخ إمام، وزميله الشاعر أحمد فؤاد نجم "يمّه مصر يا بهية" التي كانت تميمة الفيلم ومعها أغنيات أخر للثنائي الشهير.
كنت حاضراً تلك الأمسية، بشغف السينما والشعر اللذين لا ينفصلان إذا كان الشاعر يلتقط بعدسته الشارع العام وما يمور به من أحداث وإحداثيات تنبع من الحياة اليومية التي تعصف في هذا الشارع، أو كان السينمائي يري إلي حالة العالم بعين شاعر: ما يختلف هو الأدوات واللغة فقط، سواء كانت "الثيمة" تتعلق بالقضية القومية فلسطين أو حياة بائع صحف عربي لم يجد شارياً لصحف كاذبة أسقطت آلاف الصواريخ على قصر سلمان سالازار (الرئيس الإسرائيلي أثناء حرب ١٩٦٧)، وبين المانشيتات التي أتذكرها جيداً: "طائراتنا تدك تل أبيب"!
اقتربت من السيدة الفنانة، محسنة توفيق، بعد نهاية الأمسية الجميلة، وعرفتها بنفسي، وتدخل الصائغ، بأريحية ذاك الزمان، ليعزز صورتي البسيطة: شاعر شاب يحب السينما والعراق وأغاني الشيخ إمام.
سألتها سؤالاً اعتقده بسيطاً: لماذا لا تتجه السينما المصرية لإنتاج أشرطة من هذا النوع؟
قالت، وسط لغط الناس المتجمعين حولها: "يوه.. دي حكاية طويلة وصعبة قوي"! صافحتها، شاداً على يدها، إعجاباً، وبدأنا بمغادرة القاعة كل إلي سبيل.
رحل يوسف شاهين لكن تركته من السينما تجيب على سؤال أساسي في الفن مفاده: كيف يتأتى لفنان أن يحظى بإجماع النخبة والجمهور العام.. وإن يكرم في أهم مهرجان للسينما في العالم (كان) الفرنسي ويتابع أعماله عمال "التراحيل" في مصر ومتسكعو ساحة الطيران في بغداد؟
يكمن الجواب في قوة الفن على الإقناع وقدرته الفائقة علي الصدق.
إن الفيلموغرافيا التي سجلت تاريخ الرجل، فناناً وإنساناً، من "بابا أمين" فيلمه الأول حتى "هي فوضي" وبينها أفلام سيرته الذاتية المسلسلة (اسكندريه ليه؟) مرورا بـ "الأرض" و "باب الحديد" و "الاختيار" و "المهاجر" نقلت السينما المصرية من الفيلم النمطي، المعروفة نهايته، إلي الفيلم المركب، كنص سينمائي مفعم بالمفاجآت واللامتوقع، على أن جميعها، بالنتيجة، هي سيرة حياة كما أن ثمة أفلاماً أخري عديدة، كرست يوسف شاهين فناناً عالمياً، رغم تفاوت مستوياتها فنياً، أو تلك التي عبرت عن موقف آيديولوجي جوهره الموقف من الغرب ومسؤوليته عن مآسينا الشرقية أو العربية، لكن، بالنتيجة، استطاع هذا المخرج الفذ أن يغزو العالم بـ "عصفور". شهادات السينمائيين العالميين والممثلين والنقاد الغربيين أكدت وأعجبت بموهبته الكبيرة، وتنوع موضوعاته، وفكرته الإنسانية الداعية للتغيير والتسامح وتقريظ الإنسان.

لاحظ "جان رينوار" مرة إن "الحقيقة دائما تكون ساحرة" في أفلام زميله المصري يوسف شاهين. لقد صنع شاهين، الذي توفي وعمره ٨٢ سنة بسبب نزيف المخ، أكثر من ٤٠ فيلما إذ تتحرى أعماله باطراد الوطنية الصادقة التي تعني أن تكون مصريا، والحاجة إلى التسامح والمجتمع العادل.

وعلى الرغم من تقدير المخرجين الأوربيين له وتفضيله في المهرجانات العالمية إلا أن التوزيع التجاري لأفلامه في الغرب- عدا فرنسا- بقي محدوداً، وكانت أعماله المتأخرة أحياناً تعرضت إلى التهديدات من قبل الأصوليين في العالم الإسلامي.

يوسف شاهين:
جرأته وإنجازاته لا ينكرها أحد

شيلا وايتكر
ترجمة: نجاح الجبيلي

في أواخر السبعينيات والثمانينيات أخرج ثلاثية سيرٍ ذاتية جلبت له شهرة عالمية واسعة (أسكندرية ليه – ١٩٧٨، حدوتة مصرية – ١٩٨٢، أسكندرية كمان وكمان – ١٩٨٩) وتدور أحداثها في الإسكندرية عام ١٩٤٢ حيث كانت الوطنية المصرية نفسها تواجه الاحتلال البريطاني مما استدعى إرسال المزيد من القوات هناك للقتال ضد الألمان، ويربط فيلم "أسكندرية ليه" مقاطع من أفلام هوليودية موسيقية وأفلام خبرية من متحف الحرب الإمبراطوري.

وكان ذلك في زمن اتفاقية كامب ديفيد ودعوة الثلاثية للتسامح فسرّت كونها مساندة للرئيس أنور السادات في زيارته للقدس عام ١٩٧٧ وما لحقها من اتفاقيات مع إسرائيل عام ١٩٧٩ والتطورات غير المألوفة جداً في العالم العربي. وعلى الرغم من أن المنظمات الفلسطينية قبلت الفيلم إلا أنه منع في عدد من الدول العربية. ومع ذلك فقد فاز بجائزة الحكام في مهرجان برلين السينمائي.

ولد شاهين في الإسكندرية المحتلة من قبل البريطانيين في عائلة تتكلم أربع لغات. كان والده محامياً لبنانياً مسيحياً ومناصراً لحزب الوفد الوطني وكانت أمه إغريقية. درس في مدرسة اللاهوت المسيحي في كلية فكتوريا التي كانت تعطي دروسها بالإنكليزية. ومشاهدته لمسرحيات خيال الظل في طفولته ثم أفلام حجم ٩,٥ ملم حفزت لديه الرغبة في الحصول على مهنة في المسرح.

وحين بلغ السابعة عشرة أقدم على إخراج مسرحية غنائية في سينما الحمراء بعد مشاهدة فيلم وثائقي عن مخرج الاستعراضات الأمريكي فلورنز زيغفلد. ولسوء الحظ فإن المالك أتاح فقط ساعتين كوقت للبروفة وكان العائد كارثياً لهذا فإن محاولة شاهين لإقناع أبيه لدراسة التمثيل فشلت. وبدلاً من ذلك ذهب إلى جامعة الإسكندرية ليدرس الهندسة – وهو اختيار أبيه- حيث أخرج أكثر من مسرحية غنائية ناجحة وأخيراً أقنع أبويه بإرساله إلى معهد باسادينا في كاليفورنيا حيث أنهى فصلاً دراسيا في التمثيل من ثلاث سنوات خلال سنتين.

وعند عودته قرر ان يخرج الأفلام، فأخرج فيلما كوميديا بعنوان "بابا أمين" – ١٩٥٠ حين كان عمره ٢٤ سنة. وكان فيلم "ابن النيل" هو الفيلم الرئيسي الأول الذي يستعمل فيه المواقع الخارجية وبدأ نشاطه بعد الزفاف إلى زوجته الفرنسية المولودة في الأسكندرية "كوكو". وكان قد خطا خطوة واسعة في فيلم "باب الحديد"، الذي يحكي قصة العمال المطرودين وصوره بالأبيض والأسود المدهشين. وكان أيضاً الظهور الأول لشاهين أمام الكاميرا – حيث أدى دور بائع الصحف المعوق "قناوي" إذ تظهر رغبته الجنسية المقموعة إلى السطح حين تصبح "هنومة"، بائعة

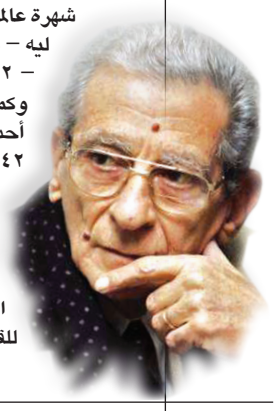

كان فيلم "ابن النيل" هو الفيلم الرئيسي الأول الذي يستعمل فيه المواقع الخارجية وبدأ نشاطه بعد الزفاف إلى زوجته الفرنسية المولودة في الأسكندرية "كوكو". وكان قد خطا خطوة واسعة في فيلم "باب الحديد"، الذي يحكي قصة العمال المطرودين وصوره بالأبيض والأسود المدهشين

المشروب الغازي، هدف رغبته.
أما فيلم "الناصر صلاح الدين" فهو ملحمته التاريخية التي أنتزعها من عز الدين ذو الفقار وأصبحت له. والفيلم بالألوان إذ وضع الرئيس جمال عبد الناصر تحت تصرفه ٨٠٠ جندي و١٢٠ من سلاح الفرسان والفيلم يعتمد بشكل حر على سيرة البطل المسلم صلاح الدين الذي هزم الصليبيين. وبينما قدّم الفيلم صورة مثالية إلى حد ما للرجل، فإن نسجه القصة حول المبادئ الإسلامية – وبضمنها التسامح الديني الكريم مع بقية الأديان التوحيدية – وجدله دفاعاً عن حق الأمم العربية في حكم القدس جعلته وثيق الصلة بالصراع الفلسطيني بصورة أكبر على مدى الزمن. يستمر.
وعلى الرغم من دعم ناصر الأساسي إلى أن مواجهة شاهين اللاحقة مع نائب وزير الثقافة حول فيلم آخر جعل الفيلم مهملاً في الجوائز الوطنية.
ذهب شاهين إلى لبنان لإخراج كوميديا موسيقية (بياع الخواتم-١٩٦٥) مع المطربة المعروفة فيروز لكنه رجع إلى مصر حين سمع بأن ناصر أشار إلى أن "الرجل المجنون" يمكن أن يرجع. وأول فيلم سياسي له كان "جميلة الجزائرية" – ١٩٥٨ وهي قصة مؤثرة ضد الاحتلال الفرنسي أنتجت قبل الانسحاب الفرنسي لكن بعد حرب الأيام الستة عام ١٩٦٧ أصبح سياسياً بصورة متزايدة.
في عام ١٩٧٢ أسس شركته الخاصة (مصر للأفلام) مع ابنه وابن أخيه ماريانا وغابريبل خوري لكنه عانى من نوبة قلبية خلال تصوير فيلم "العصفور" – ١٩٧٣، وهو تأمل مباشر في هزيمة ١٩٦٧، وخضع إلى عملية جراحية مفتوحة للقلب.
استمر شاهين بصناعة الأفلام في التسعينيات لكنه بدأت متاعبه مع الأصوليين. ففي فيلم المهاجر – ١٩٩٤ الذي عرض بنجاح حصلت المشكلة لأن القرآن يمنع تمثيل الأنبياء: وفي نظر الأصوليين كان الفيلم إعادة لقصة يوسف. وكان الفيلم محظوراً إلى أن كسب شاهين الدعوى القضائية لكن لا أحد جرأ على عرض الفيلم فيما بعد.
وفي عام ١٩٩٧ حصلت له أيضاً مشكلة مع الاصوليين حول فيلم "المصير" الذي يعتمد على حياة الفيلسوف الأندلسي العربي من القرن الثاني عشر أبو الوليد بن أحمد أبن رشد (المعروف في الغرب باسم "أفيروس") الذي يقدره المسيحيون واليهود عالياً لكن يشك به زملاؤه العرب بسبب آرائه الأرسطية العقلية. وكان الفيلم دعوة إلى التسامح قد نظر إليه كونه هجوماً على الإسلام إضافة إلى تمثيله الوقح لابن رشد.
وتلقى شاهين مرة أخرى تهديدات لكنه تمسك بموقفه و صرح، مستبقا الجدال اللاحق، بأنه " لا يوجد شيء يضاهي الإرهاب الإسلامي ، إنه مجرد إرهاب مباشر". ونزعة التعصب تلك لم تكن حكراً على العرب. وأصبح أول الفيلم له يوزع تجارياً في الولايات المتحدة وأقيم معرض استعادي عام ١٩٩٨ لخمسة عشر فيلماً من أفلامه في مركز لنكولن في نيويورك ثم قام بجولة في بقية المدن الأمريكية.
بعد عرض فيلم "المصير" في مهرجان القاهرة السينمائي في تلك السنة، أثار ضجة على المسرح أمام وزراء الثقافة والإعلام بالتصريح بأن التلفزيون المصري تافه وواقع تحت التأثير السياسي، وهي إحدى ثيماته الثابتة العامة. في عام ٢٠٠٢ ساهم بفلم قصير من ١١ دقيقة لفيلم مركب يدور عن هجمات ١١ أيلول ، وبسببه انهمته ، من بين الآخرين، مجلة أنترتينمنت الأمريكية بـ" المعاداة الشديدة لأمريكا". وفيلمه هو مواجهة خيالية بين مخرج غير مسمى و جندي مارينز قتل في بيروت وقاتله الأصولي ،إذ يعتبر الملايين من الضحايا في العالم هم بسبب السياسة الخارجية للولايات المتحدة.
كتب شاهين بصورة مطردة سيناريوهاته الخاصة بدءاً من (المهرج الكبير) – ١٩٥٢ واحياناً كان يظهر في أفلامه. وقد قدم العون لعدد من الممثلين بضمنهم عمر الشريف الذي من أجله قدم فيلمه الأول (صراع في الوادي) – ١٩٥٣ وعمل معه في مناسبتين. كذلك مثلت معه المطربة المصرية داليدا في "اليوم السادس" – ١٩٨٦ قبل انتحارها المأساوي. كذلك مثل في أفلامه ممثلان فرنسيان ميشيل بيكولي وباتريك شيرو، وهو نفسه مخرج أوبرالي ومسرحي وسينمائي، في فيلم "وداعاً بونابرت" – ١٩٨٥ كذلك ظهر بيكولي في فيلم "المهاجر" بينما قدم في فيلم "سكوت ح نصوّر" – ٢٠٠١ المطربة التونسية لطيفة. كذلك أخرج أفلاماً وثائقية قصيرة مثيرة للجدل.
في عام ١٩٩٧ تسلم شاهين جائزة مهرجان كان للإنجاز مدى العمر، بعد ٤٦ سنة وخمسة أفلام من ظهوره لأول مرة هناك، وفي عام ٢٠٠٤ كان فيلم "أسكندرية .. نيويورك" خاتمة أفلامه الليلية.
في عام ٢٠٠٧ صنع فيلماً قصيراً آخر كجزء من الفيلم المركب "كل له سينماه" الذي موله "جيل جيكوب" للاحتفال بالذكرى الستين لمهرجان كان، وقد بدأ العمل بفيلم "هي فوضى" وهو تعليق حاد على مصر المعاصرة- وبالأخص على قسوتها السياسية. لكن المرض منعه من إكماله وتولى مهمة إكماله خالد يوسف الذي عمل مع شاهين كممثل وكاتب سيناريو مشارك ومخرج مساعد. وعرض في مهرجان فينيسيا للفيلم عام ٢٠٠٧ وفي كانون الأول من تلك السنة تسلم جائزة مهرجان دبي العالمي للفيلم للإنجاز مدى الحياة لمخرج عربي على الرغم من أن صحته منعته من الحضور.
حينما التقيته في القاهرة عام ٢٠٠٢ كان قد احتل عناوين الصحف بعد أن فرقت الشرطة بالغاز المسيل للدموع جموع المتظاهرين ضد إسرائيل: شاهين الذي كان يعاني من مشاكل القلب قد حمل من مشهد التظاهرة من قبل الطلاب. في هذا الوقت كان يتأمل بما يشتمل عليه فيلمه، ولكن كان واضحاً بأن الأحداث أجبرته على مراجعة حبه لأمريكا، وهذا التفكر بلا شك يشي بتعليق في الفيلم بأن "أمريكا يجب أن تنشر قيمها بدلاً من أن تهدم المدنيات". وبعد هجمات الحادي عشر من أيلول عام ٢٠٠١ استشهد بالقول بأن الأمريكان يجب أن يشاهدوا فيلميه "المصير" و "الآخر" والأخير هو تعليق على العولمة.إن شاهين المعروف بنظارتيه الكبيرتين السميكتين والوجه الشيطاني والقوام الساحر كان رجلاً دافئاً ظريفاً. والفنانون الذين تأثر بهم جولين دوفيفيه مخرج فيلم " الفالس العظيم" وبسبي بيركلي وجان كيلي (الذي أهدى له فيلم اليوم السادس – ١٩٨٦) إضافة إلى أن خلفيته الأسكندرانية التي تنتمي إلى شرق المتوسط أكثر من انتمائها للإسلام وأفلامه غير الخطية من المحتمل أنها جعلت به شيئاً من الغرابة في العالم العربي بينما التزامه بالشؤون المصرية والعربية والاجتماعية والسياسية ربما كانت عقبة في تقبلها الواسع في الغرب. لكن إنجازاته الأساسية وشجاعته لا يمكن إنكارها وعلى الرغم من أن أفلامه المتأخرة كانت ربما أقل براعة وإبداعاً من أفلامه المبكرة ، وبالأخص في استعماله للأغنية والرقص، إلا أن مكانته راسخة في بانثيون الخالدين.
ترك يوسف شاهين وراءه زوجته "كوكو" إذ ولد المخرج وكاتب السيناريو والممثل في ٢٥ كانون الثاني ١٩٢٦ ورحل في ٢٧ تموز ٢٠٠٨ .

في عام ٢٠٠٧ صنع فيلماً قصيراً آخر كجزء من الفيلم المركب "كل له سينماه" الذي موله "جيل جيكوب" للاحتفال بالذكرى الستين لمهرجان كان، وقد بدأ العمل بفيلم "هي فوضى" وهو تعليق حاد على مصر المعاصرة- وبالأخص على قسوتها السياسية

ثمة فوضى أخرى في فيلم (هي فوضى)

علي حسن الفواز

وسط الفوضى التي تجتاح كل شيء، هل يمكن للسينما ان تقدم نبوءة صورية ازاء هذه الفوضى؟ وهل يمكن لأزمات الواقع وصراعاته ان تكونا جزءا من محمول هذه النبوءة، تلك التي تفترض ان العالم الضاج بصراعات سرية وعلنية مقبل على حروب صغيرة اخلاقية وسلوكية تلامس يوميات المدن والناس والعلاقات والحاجات؟ المخرج العالمي العربي يوسف شاهين حاول ان يخترق تاريخه القديم في صناعة السينما(الشخصية) التي جعلته بعيدا عن المناخات الشعبية لسنوات طويلة، باتجاه التعاطي مع صناعة نمط اخر، اكثر عمومية، لكنه اكثر توغلا في تفاصيل جسد المدينة والمجتمع. اذ عمد مع المخرج الشاب خالد يوسف الى اخراج فيلم(هي فوضى) الذي يعرض حاليا في اغلب دور السينما المصرية ويحقق ايرادات كبيرة، ليضع سينما يوسف شاهين امام مؤشرات تعبّر عن مجموعة من المعطيات الصادمة التي بدأت تتشكل وتتراكم كشكل من مظاهر ازمة حقيقية تواجه صناعة السينما المصرية. هذه المعطيات لاترتبط فقط بفكرة الفيلم وجرأته خاصة مشاهد الجنس والعنف والقسوة، والكيفية التي اختار فيها يوسف شاهين ابطاله، وكيفية صناعة السيناريو المكثف في بنائه الاسلوبي والصوري والذي نفذّه السيناريست ناصر عبد الرحمن، بقدر ما يرتبط بطبيعة الوظيفة التي يمكن ان تمارسها السينما وسط عاصفة من الافلام الهابطة التي قدمت نماذج وحيوات عائمة هروبية وساخرة وفنطازية احيانا داخل الحياة المصرية. اشتغل الفيلم على ثيمة اجتماعية تعيشها الطبقات المسحوقة والمتوسطة في قاع الحياة المصرية، ارتبطت باستغلال البعض من المسؤولين ومنهم رجال الامن دورهم في التجاوز على الاخرين والنيل منهم اخلاقيا واجتماعيا وسياسيا، وهذه الثيمة تتصاعد وتقترن مع الفوضى الاجتماعية التي تواجهها هذه الطبقات وسط غلاء الاسعار وضغوط الحياة الاجتماعية والسياسية وازمات الصراعات العميقة الثقافية والامنية والدينية التي تتفاعل بشراهة داخل الشارع المصري ومؤسساته، حتى تبدو وكأنها فعلا تشبه الفوضى.. ان ابسط ما يثيره الفيلم هي القسوة المباشرة في صناعة المشهد، والتحريض عليه واقعيا وليس رمزيا، اذ ان الشارع المصري يمور بعشرات الحوادث العابرة في اقسام البوليس وسجونها وفي الزوايا الخلفية، مثلما ان الصحف المصرية تنشر يوميا في صفحات الحوادث عشرات الجرائم الاجتماعية كالاغتصاب والقتل والسرقة وحوادث المرور وسقوط العمارات على ساكنيها، لكن ان تدخل هذه الموضوعات في البنية البصرية لتكون صورا او افكارا يتم عرضها في السينما، فهذا يفترض التوافر على اشتغالات عميقة في تقنيات الوعي البصري والرؤية الواضحة، مثلما ترتبط بوجود ضغط نفسي وسياسي وثقافي يدفع باتجاه(التنفيس) عن اختناقات عن هذا الضغط في الحياة المصرية وتداعياتها، واستغلال الصورة لتسليط الضوء على الكثير من الجرائم الاجتماعية والاخلاقية ومنها جرائم الشرف، عبر تقديم امين الشرطة حاتم الذي اداه بامتياز الفنان خالد صالح، كنموذج للفساد المستشري داخل المؤسسة الامنية، مثلما يضع(النص) السينمائي امام وظيفة هي اقرب للتحريض، خاصة المشهد الاخير للفيلم حينما يقتحم الناس قسم البوليس للانتقام من امين الشرطة وكأنهم ينتقمون رمزيا من السلطة وقسوتها ونموذجها. ان افلام يوسف شاهين الاخيرة التي اعتمد فيها مفهوم الرؤيا الشخصية العميقة ازاء مواقف سياسية ونفسية وجنسية، مثلت تحولا مهما في تجربته الواقعية التي ابتدأها في فيلم ابن النيل وبابا امين والافلام الاخرى(صراع في الميناء، باب الحديد، الارض، جميلة) وافلامه الرمزية (الاختيار، العصفور، الاخر، المصير) ولعل فيلم(هي فوضى) الذي شاركه في اخراجه تلميذه النجيب خالد يوسف لايضيف لهذه التجربة اشياء جديدة، قدر ما يعكس بعدا سياسيا تعويضيا هو جزء من اشكالية التعاطي مع ثقافة الازمة والتنفيس عنها. فامكنة التصوير محدودة، ونموذج البطل مكرر، ومشاهد المومسات وهوس البطل(حاتم) بها كنموذج للبطل الفحولي ذي المزاج السادي، لكن يبقى لهذا الفيلم تميزه عن افلام الموجة العائمة تحت يافطة(افلام الشباب). اذ يضع المشكلة الاجتماعية والاقتصادية في صلب معالجته السينمائية، تلك التي تلامس هاجس الشارع وقلقه وتشوهاته النفسية والاخلاقية والجنسية. تظل افلام يوسف شاهين رغم كل ما يقال عنها، عرضة للمشاهدة والجدل، فهي تحمل اغواء استثنائيا، كما هي تكشف عن نكهة وعيه السياسي المتمرد وجرأته في قراءة الكثير من ملفات الشخصية الاجتماعية(المصرية او العربية) المضطربة القلقة الخارجة عن السياق، فضلا عن طبيعة خاصية تقنياته المتميزة التي تؤكد لنا اهمية البناء الفكري للنص السينمائي، والبعد الفني التصويري والجمالي والتقني في الصناعة السينمائية، مثلما هي روحه التعليمية الكبيرة التي تتجسد في مسؤولياته في دعم تجربة تلميذه المخرج خالد يوسف الذي ارتبط اسمه باكثر الافلام جرأة في السنوات الاخيرة في السينما المصرية ومنها افلامه(زواج بقرار جمهوري، ويجا، خيانة مشروعة، حين ميسرة).

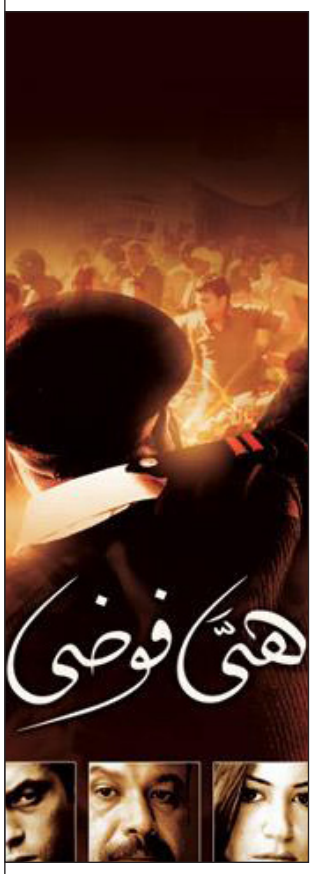

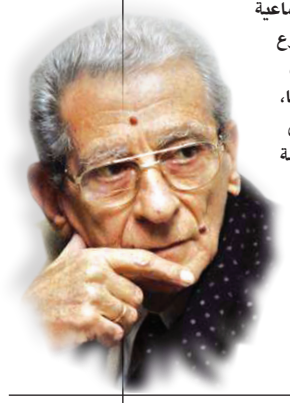

حقا انه قداس متأخر، أقيم الى سيد القداسات الجميلة، واكثرها رسوخا في الذاكرة الشعبية العربية والعالمية، قداس عله استطاع ان يوثق مسيرة رجل عبر اطول رحلة من رحلات العلامات المهمة في تاريخ الجماليات.
- ربما هو قداس متأخر او - ربما هو العكس..!
لكنه أقيم أخيراً وسط دموع الأحبة الذين تحلقوا حول نعش رجل لم يختلف احد على اتساع وعمق عبقريته السينمائية وتفرده بنمط وأسلوب إخراجي خاص به.

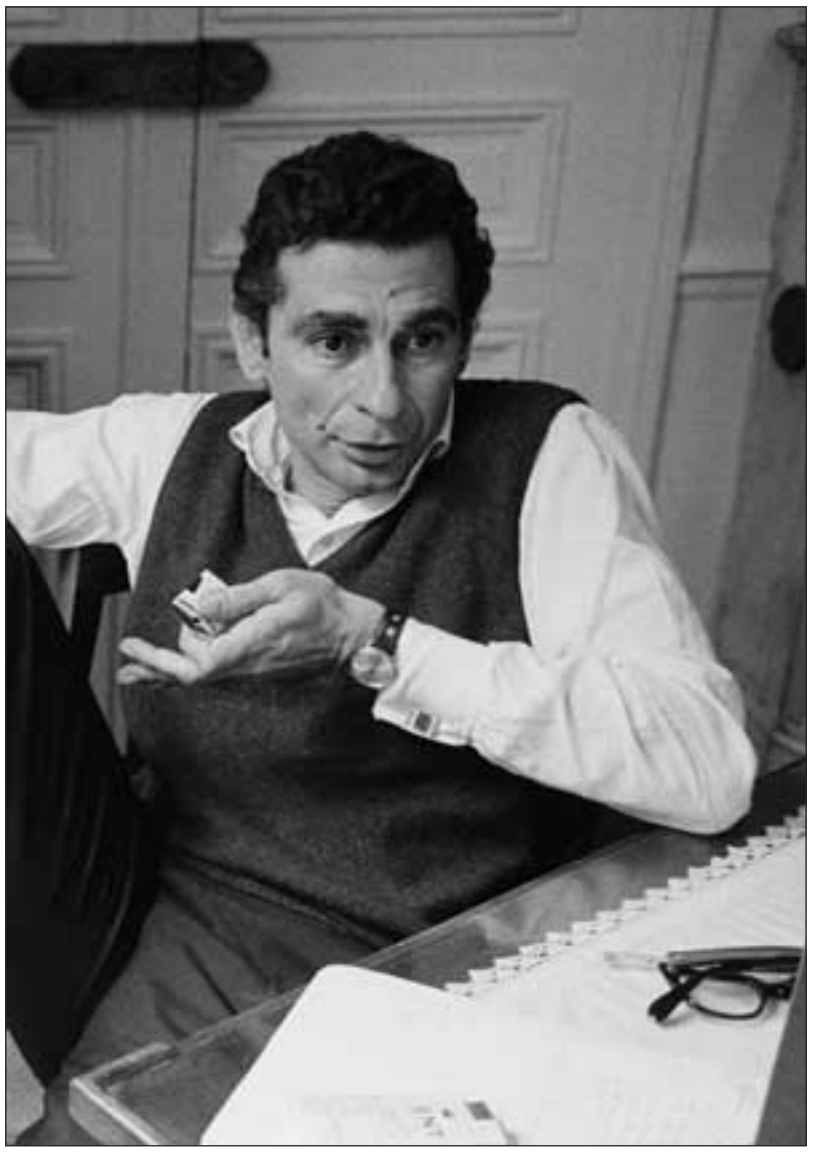

قداس متأخر.. الى يوسف شاهين

محمد علوان جبر

حيث كانت أفلامه علامة مهمة من علامات السينما العربية ولا أغالي اذا قلت العالمية، حيث تنوعت موضوعات هذه الأفلام وكذلك سبل تناولها، فيوسف شاهين الذي درس الفن السينمائي في أمريكا اهتم كثيراً في ان يشكل له مدرسة سينمائية خلقت منه شخصية متفردة في كل شيء.. حيث بدأت هذه الرحلة منذ فيلم "باب الحديد" وتلاها فيلم "الارض" و"المصير".. وفيما بعد اكتنزت وتنوعت مضامين أفلامه فمنها ما تناول موضوعة الصراع الطبقي كما في فيلم "صراع في الوادي" و"الارض" و"عودة الابن الضال" ومنها ما تناول موضوعة الصراع الوطني والاجتماعي كما في فيلم "جميلة بوحيرد" وفيلم "وداعاً بونابرت" وكذلك موضوعة سينما التحليل النفسي المرتبط بالابعاد الإجتماعية كما في أفلام "باب الحديد" و"الاختيار" وفجر يوم خاص" والتي اعتبرها النقاد من أهم تجارب شاهين السينمائية.

اما المحطة المهمة في رحلة شاهين السينمائية فكانت أجاز لنا التعبير ان نسميها – بسينما الذات – او سينما السيرة الذاتية التي كانت تتحدث عن سيرته الذاتية والتي كان اولها فيلم "اسكندرية ليه" إنتاج عام ١٩٧٨ الذي ركز على تحقيق الشخصية المنفردة والمزج بين العام والخاص وكذلك المزج بين التاريخ الفردي وتاريخ قضايا ومحطات الوطن المهمة، الفيلم كان برأي اغلب نقاد السينما أهم وأفضل ما أنتجته السينما العربية، حيث تناول السيرة الذاتية لشاهين ووصوله الى أمريكا طالباً في قسم السينما على خلفية احداث الاحتلال الاسرائيلي لفلسطين في أربعينيات القرن الماضي، تلك الفترة الضاجة بالاحداث التي غيرت وجه وخارطة الوطن.

اما الفيلم الثاني من أفلام محطة شاهين الذاتية التي اعتبرها مدخلا للعام العاصف، فهو فيلم "حدوتة مصرية" إنتاج عام ١٩٨٢ الذي تناول الطفولة العاصفة –يوسف الطفل– كان تزاوجا غريبا وانصهارا بين عوالم غرائبية– تكاد تصل الى حدود الفنتازيا القصوى– وواقعية صارخة من خلال ثلاث شخصيات أنثوية مهمة في حياة البطل وهي أمه وأخته وزوجته وكذلك مثل صراعاً كبيراً بين الهروب الكبير من الذات – الطفل – والذات الاخرى – الرجل – والضربة الفنية الكبيرة ان شاهين أدى فيه دور البطولة، ولا اعتقد ان هناك مبدعاً تحدث عن سيرته الذاتية اكثر مما فعله – شاهين – او – جو – كما كان يحب ان يسمى وهو يسرد الموروث الكبير الذي عاشه إنساناً وفناناً وسياسياً ومغترباً.

لقد أدركت وأنا اكتب هذه المقدمة انه كان قداساً فنتازيا كما هي أفلامه ونبرته الخاصة، وتخيلت او ربما خيل لي ان مخرج هذا القداس لم يكن غير يوسف شاهين ذاته، لقد تناول هذا القداس كل شيء أمام تابوت كان ينام فيه – يوسف شاهين – وسط فسحة هائلة من الزوايا والمرايا والانعكاسات الضوئية مكانا لا يختلف عن أي كنيسة في العالم سوى ان المكان له علاقة بشاهين، كان التابوت مغطى بعلم مصر والكثير من الورود الملونة التي غطت التابوت المرصوف على دكة عالية، وفوق التابوت كان أربعة رهبان ذوي وجوه غليظة يرتدون النظارات ويضعون أغطية الرأس السود ويرتدون الاردية الحمر وهم يحملون الكتب المقدسة والصولجانات الذهبية و يرددون التراتيل التي كان الحشد يرددها بعدهم، وشموعاً صفراً كثيرة توزعت وسط مشهد الجنازة وقد تخيلتك يا سيدي أيها المبدع وأنت وسط التابوت تراقب ذؤابات تلك الشمعة الكبيرة وهي تتساقط على صفيح وقماش التابوت وكنت أتصورك وأنت تتململ وتطلب من القساوسة – والاصدقاء القدامى الذين تحلقوا حول التابوت – ان يبعدوا انصهار الشمع في النار الصفراء عن جسدك.. لا لشيء سوى انها كانت تتقاطع مع القداسات التي كنت تصغي بتركيز عجيب الى نشيدها المتأخر جداً والتي اعتبرها اغلب من رأى ذلك عبر الصورة في التلفزيون قداساً أخيراً أقيم على جنازة رجل تحدثت عنه كثيرا في أفلامك.

وصاح الجميع وسط الكنيسة – وداعاً... وداعاً يا جو.. كما قالها الراهب الذي تحدث عن رقيم سيرتك الفنية.. أنا موقن يا شاهين انك كنت وسط التابوت تحدق في هؤلاء وتسمع ما يقولونه وهم فوق منصة كانت اعلى قليلا من دكة تابوتك الذي دفن في الاسكندرية تلك المدينة التي عشت فيها وعاشت فيك طوال اكثر من ثمانين عاما وتغنيت بها مذ ولدت وحتى هذه اللحظة الوجدانية المهمة.. قلنا انه متأخر هذا القداس! لكنك صرخت فينا وبقسوة من خلف سماكة التابوت الملون بالراية الوطنية، انه مبكر جداً.

يوسف شاهين

تاريخ حافل بالفن والسياسة .. والمعارك .. والنجاحات

منذ البداية أدرك يوسف شاهين ،المولود عام ١٩٢٦ ، إن صنع الأفلام يتطلب جهدا شاقا ووقتا طويلا . ومن خلال رغبته في الخروج من دوائرها التقليدية تمكن من تجاوزها إلى حد كبير .

ويمكن أن نحدد عام ١٩٥٤ كبداية أول مرحلة جدية خاضها شاهين حين حقق (صراع في الوادي) ، بعد أن حقق أفلاما قد تكون جيدة بالنسبة للسينما المصرية السائدة آنذاك إلا أنها لم تكن هي المرجوة منة ، هذه الأفلام كانت (بابا أمين) أول افلامة عام ١٩٥٠ و (ابن النيل) ١٩٥١ و (المهرج الكبير) ١٩٥٢ و (سيدة القطار) ١٩٥٣ و (نساء بلا رجال)١٩٥٣ . و (شياطين في الصحراء) ١٩٥٤ و (صراع في الميناء) ١٩٥٦ و (ودعت حبك) ١٩٥٧ و (أنت حبيبي) عام ١٩٥٧ ثم (باب الحديد) ١٩٥٨ . سينمائيا كان هذا الفيلم أول نجاح عالمي لشاهين واذارتبط نضوج شاهين بالمرحلة التي تلت ثورة يوليو/ تموز بسنوات ، فان هذا النضوج لم يكتمل إلا بعد فترة طويلة خضعت فيها تجربته لظروف التطور الاقتصادي والسياسي مما دفع بافلامة إلى ان تكون تعبيرا عن واقع الحال .

وبعد أربعة أفلام هي (حب العباد) ١٩٥٩ و (بين ايديك) ١٩٦٠ و (رجل فى حياتى) ١٩٦١ و (نداء العشاق) ١٩٦١ وبعد خمسة أعوام من (باب الحديد) قدم شاهين عام ١٩٦٣ (صلاح الدين الايوبى) أول افلامة الملونة وأفضل الأفلام التاريخية المصرية ، وكانت مصر آنذاك في وحدة مع سوريا وصلاح الدين الايوبى من اكبر رموز الوحدة العربية .

وفى (فجر يوم جديد) حاول شاهين تقديم الجانب المشرق من الحياة المصرية ثم يرحل إلى لبنان قبل هزيمة ٦٧ بعامين ليقدم أول أفلام المطربة فيروز (بياع الخواتم) عن مسرحية للأخوين رحبانى ، ومن بطولة وغناء فيروز وتكمن اهميتة في كونه استفاد إلى حد كبير من أجواء الرحابنة الساحرة وأسس هذا الفيلم لتعامل شاهينى مع الأغنية والموسيقى سوف ينمو لاحقا في بعض مشاهد (عودة الابن الضال) ثم (رمال من ذهب) عام ١٩٦٦ الذي صور في لبنان والمغرب واسبانيا ثم بعد ذلك فى (اليوم السادس) و (الاخر) و (المصير) .

وفى عام ١٩٧٠ قدم شاهين فيلم (الأرض) حيث عاد إلى أجواء (صراع في الوادي) واقتبس رواية لعبد الرحمن الشرقاوي أضفى عليها رؤيته السينمائية التي كانت قد ازدادت مع الأيام تميزا وسموا ، ليجعل من هذا الفيلم واحدا من أفضل ماانتجته السينما العربية ليس في نظر النقاد ، بل في نظر الجمهور أيضا.

وفى عام ١٩٧٢ ظهر فيلم (العصفور) ليخبرنا أن شاهين يعيش قدرا كبيرا من التشويش ، ويملك أسئلة أكثر من الأجوبة ، ولان شاهين أراد أن يقول فيه أشياء كثيرة وعديدة ، ظل غامضا على الفهم لكن كان (العصفور) يمثل حديثا مهما عن هزيمة ٦٧ ، واستقبل حيثما عرض بترحاب شديد . ومن الناحية السينمائية شهد هذا الفيلم تطويرا جديا في استخدام شاهين للغته السينمائية . لقد كانت أخر عشرين دقيقة من الفيلم من اجمل واقوي واصدق المشاهد السينمائية العربية على الإطلاق ، وفيها يصور شاهين كيفية وقوع الهزيمة على إفراد الشعب العربي، واكتشافهم حقيقة وقوعهم ضحية لوسائل الإعلام الكاذبة. أن الصدق الذي يختم به شاهين فيلمه في أجواء ملحمية وشاعرية مفعمة بالحماس جاء دليلا على وعى الفنان لشعبة وقضايا امتة . وفى عام ١٩٧٣ قدم شاهين فيلم (الناس والنيل)، وكان فيلم الاختيار (١٩٧١) بداية مرحلة ،ونهاية مرحلة أخرى .. ومنذ فيلم (الاختيار) وشاهين يعلن المرة تلو الأخرى انه ومنذ كارثة ٦٧ : (لم يعد يستطيع أن يحكى حدوتة، فليس ثمة قصة يمكنها أن تعكس افكاره ومشاعره على نحو متكامل ، وهو يريد أن يعبر بأسلوب خاص ومتحرر من وسائل السرد التقليدية عن رؤيته واحساسة بالتلاحق السريع للأحداث والتغيرات التي تلحق بالوطن

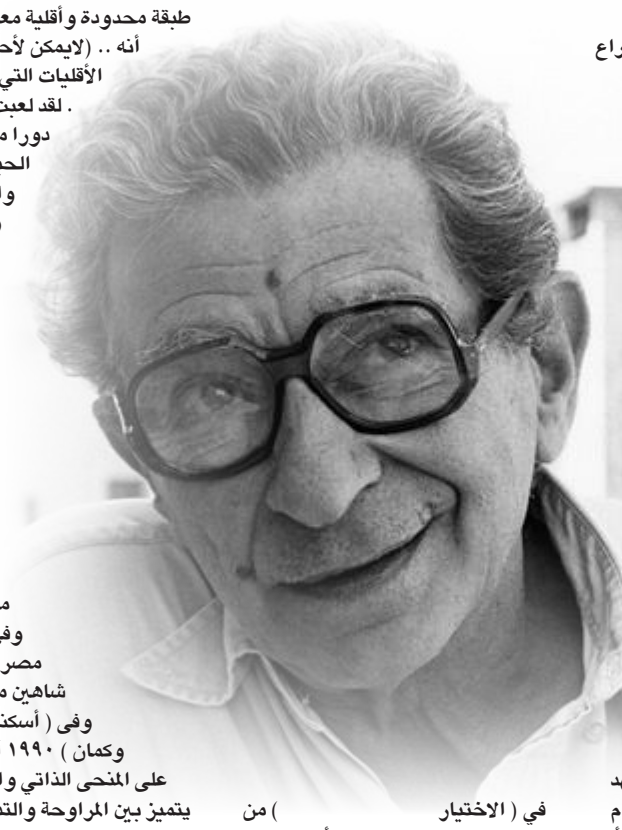

طبقة محدودة وأقلية معينة باعتبار أنه .. (لايمكن لأحد أن ينكر دور الأقليات التي عاشت في مصر . لقد لعبت هذه الأقليات دورا مؤثرا في الحياة الاقتصادية والثقافية والسياسية للمجتمع المصري وتصويري لهذا المناخ المنفتح يرد على ادعاءات

(الصهيونية) الخاصة بان العالم الاسلامى عالم متعصب) وفى (حدوتة مصرية) (١٩٨٢) قدم شاهين محاكمة لنفسه وفى (أسكندرية كمان وكمان) ١٩٩٠ أكد فيه شاهين على المنحى الذاتي والنفسي الذي يتميز بين المراوحة والتداخل بين هموم الوطن ورغبات الفرد الفنان .

وتؤكد الثلاثية على إن شاهين قد تعلم عن طريق ملاحظاته المباشرة التى ميزت أنماط الأفلام التي تتقبلها المهرجانات السينمائية الغربية بعد تجاربه في مهرجان كان مع فيلم (ابن النيل) ومهرجان برلين مع فيلم (باب الحديد) ومع مهرجان موسكو مع فيلم (جميلة) . وفى (وداعا بونابرت) رفض شاهين منطق بكر القائم على الانغلاق والتعصب) . وفى فيلم (اليوم السادس) عام ١٩٨٦ نجد الحضور الطاغي لولع شاهين بالسينما.. وإذا كان شاهين في اغلب افلامة يهتم بتناول الجنس وتصويره بشتى أبعادة ومستوياته : الواقعية والرمزية ، الاجتماعية والسيكولوجية ، السوية والشذوذية ، المتحررة والمكبوتة فأنة في (اليوم السادس) يظهره كعنصر أو محرك اساسى يحكم العلاقات ويحدد توجهات الأفراد . أن شاهين هو الأكثر جرأة من بين المخرجين المصريين في معالجة

في (الاختيار) من الممكن إن تلمس واحدة من أفكار شاهين : فالمظهر النظيف المستقر غالبا مايخفي مضمونا سيئا ومتهالكا ، فوراء نجاحات (سيد)مثقف السلطة الانتهازي سلسلة من الجرائم والخيانات .

وفى (العصفور)(١٩٧٢) نجد أن وراء الملصقات والإعلانات الثورية التي ملأت الشوارع والجدران قبل حرب ٦٧ بأيام قليلة ، والتي تتحدث عن تماسك الجميع وعن القوة القاهرة التي لن يصمد العدو أمامها نجد إن وراء هذا المظهر جريمة مروعة.

كان يوسف شاهين بحسه الفني وبصدقة المفرط في تعامله مع الواقع أكثر الناس تشاؤما ، وكان واقع السبعينيات المضطرب سريع التغير المليء بالصراعات يفرض نفسه بقوة على افلامه

فيلم (أسكندرية ليه ؟) (١٩٧٨) في خط من خطوطه كان امتدادا أصيلا لأفلام يوسف شاهين رغم ماقيل أيامها أنه مجرد حدوتة ذاتية تدور داخل

موضوع الجنس والأكثر حساسية تجاه هذا العنصر الجوهري منذ (باب الحديد) وحتى أخر أعماله .

ويتناول فيلم (المهاجر) ١٩٩٤ قصة النبي يوسف مع بعض التحوير والحذف والإضافة وهو يذكرنا بملحمته هذه بروائح الأفلام التاريخية الهوليودية مثل (الوصايا العشر) و(شمشون ودليلة) و(بن هور) وكان من الواضح إن الفيلم

وفى عام ١٩٩٧ وفى الدورة الاحتفالية لمناسبة مرور نصف قرن على مهرجان كان عرض فيلم (المصير) ليوسف شاهين وكان الفيلم العربي الوحيد في المسابقة الرسمية للمهرجان وعبر الفيلم وكعادته دائما طرح شاهين مجموعة من الإشكاليات والتساؤلات. فاذا كانت الاديان في الأساس جاءت وأحدثت طفرة وقفزات في تاريخ البشرية فما الذي حدث حتى تستخدم الأديان لإرجاع حركة التاريخ إلى الخلف؟ ! ولم يتوقف شاهين بعد إن نال تقدير العالم في مهرجان كان وإنما كان ذلك دافعا له لتقديم المزيد من النتاجات السينمائية فقدم فيلم (الأخر) عام ١٩٩٩ وبعدها بعامين قدم (سكوت حنصور) ثم (اسكندرية نيويرك) ٢٠٠٤ . و(هي فوضى) عام ٢٠٠٧ مع المخرج خالد يوسف .

وغير افلامه الروائية الطويلة قدم شاهين مجموعة من الأفلام القصيرة وهى (عيد النيترون) ١٩٦٨ ، و(سلوى) ١٩٧٢ و(الانطلاق) ١٩٧٣ و(القاهرة منورة بأهلها) ١٩٩٣ .

إن الصورة التي قدمها لنا شاهين خلال مسيرة حياته هي صورة الفنان الذي التزم الدفاع عن قضايا الناس البسطاء وتطلعاتهم وان هذا السينمائي الكبير كان طوال حياته يحمل نظرة تقدمية ظلت على يسار المنهج السياسي السائد في البلاد العربية وان مراجعة لافلام شاهين السينمائية خلال ستين عاما إنما هى مراجعة في واقع الأمر للتاريخ العربي المعاصر منذ الخمسينيات وحتى لحظة رحيله .

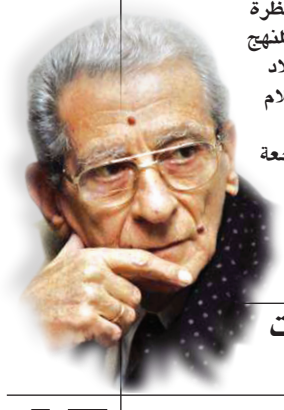

منارات

خلال ٦٠ عاما من السينما قدم لنا شاهين افلاماً كانت في حقيقتها مراجعة للتاريخ العربي المعاصر من الخمسينيات وحتى لحظة رحيله

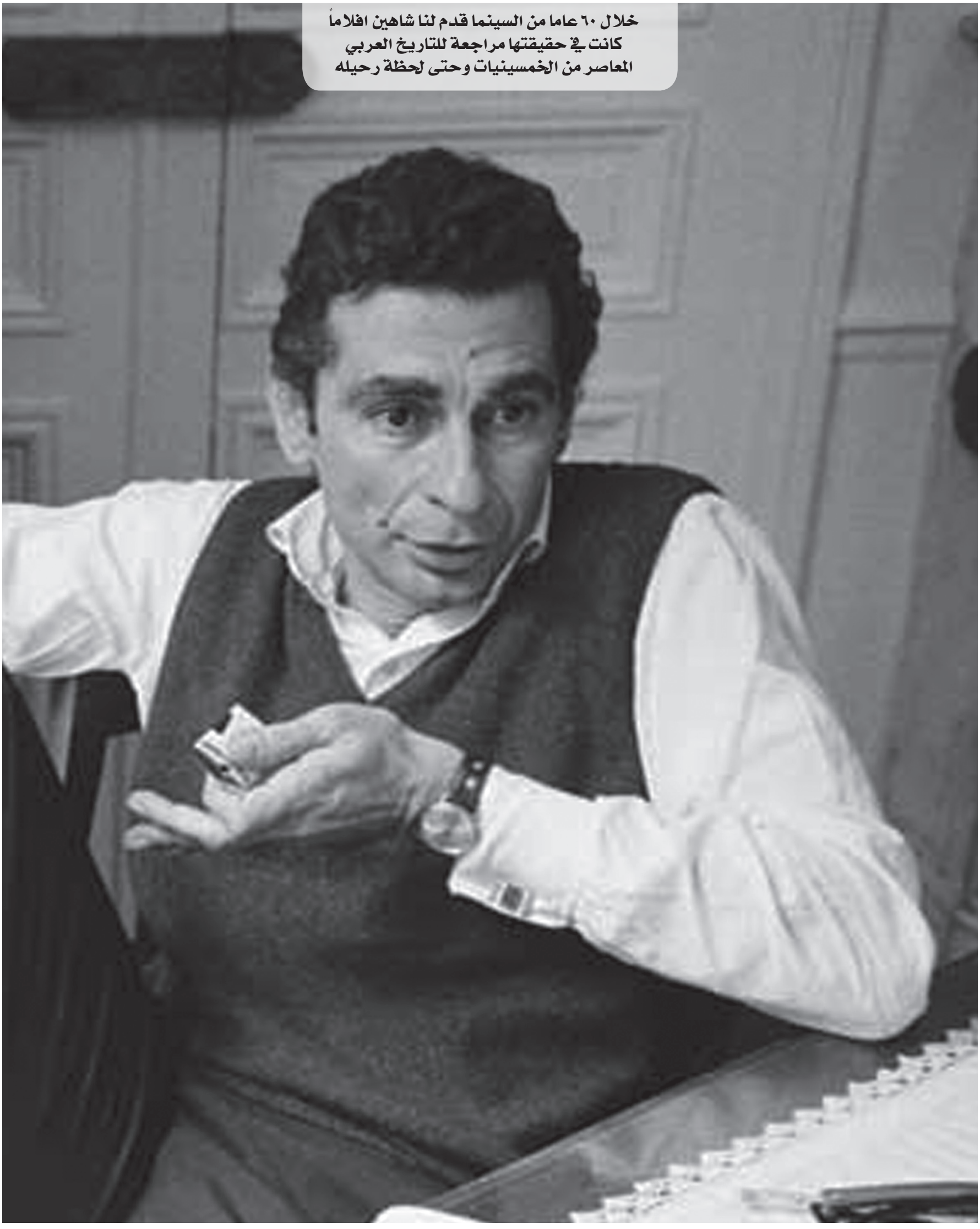

التحرير: علي حسين

التصميم: مصطفى محمد

الاشراف اللغوي: محمد السعدي